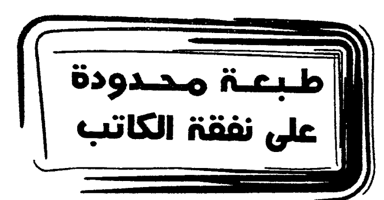


رواية

أحمد محمد حميدة



اسم الكتاب	سوق الرجال
اسم المؤلف	أحمد محمد حميده
اسم الطابع	الحضرى للطباعة
رقم الإيداع	١٦٦٥٥/ ٢٠٠٧

الغلاف الأخير
للفنان / حلمى التونى

الإهداء

إلى الموتى

الذين دعوني

على العشاء

حميده

هذه الرواية ، وقعت أحداثها بالفعل ، في بعض المناطق المتفرقة مـن المدينة ونشرتها الصحف وقت وقوعها ...

١ المخوزق

كان يجاهد ليظل حيا ..

وكان دمه متفرقا ، يلوث الحوائط . لطخات متباعدة لأصابع فزعة ، تحاول التعلق والنهوض .. دم فوق فراش . يغمر الوسادة والسجادة القديمة ، بقع بجانب بقايا أطعمة ملقاة ومنزاحة ومهروسة بأقدام .. دم علي الباب المؤدي إلى الصالة لجريح كان يركض ، مكوما ، ومستغيثا ، زاحفا يطلب النجدة ، إنقاذ رأسه المشجوج ، غائر جرحه النازف . جزء من المخ تهشم ، ويسّاقط رويدا إلي قاعه ؛ ليغمر الوجه والعين ، يسد الأنف والحلق ؛ ليعجز الفم عن الصراخ . صراخا مروعا ، مزنوقا بالداخل ، استبدله بالزحف المعافر ، ورغبة النهوض ، محاولة التعلق بما يمكن الوصول إليه ، ناشدا بلوغ باب الشقة الموصد المواجه . باب يتضخم هناك ، ويستحيل بلوغه ، أو فتحه بجسد مكوم ، يرجه الذعر ، ويعيقه أثاث بيتي ، كان يسانده ، ويسّاقط ، ويتقلب هو ، بروحه الهائمة المحتبسة ، يود الخروج منه ، العتق من بدن لم يعد يصلح لإبقاء الروح . لكنه ، معاندا ، يواصل الزحف ، متمسكا بالروح ، حتى لو ، فقط ، لبلوغ باب الشقة ، ليرفع

ذراعه ، ويمسك بمزلاجه ، يحركه ، يفتح الباب ، وليكمل سحل نفسه ــ لو استطاع ــ وليمت علي العتبة ، أو علي البسطة ، علي الدرج .. فقط ، يصل إلى الباب ..

لكنه يسّاقط ، يصطدم بقطع (الفوتيه) المنحولة خيوطه ، محاولا إقامة نصفه العلوي ، مستعطفا الصراخ أن يخرج من نطاق عذابه ، من ألمه المريع . صراخ يأبي الخروج ، كان يجب أن ينطلق ، كي يسمعه الجيران بالليل .. ناس الشقة المقابلة لبابه الموصد .. صراخ كان يمكن سريانه بوسط السكون الرهيب السائد وبلوغه آذان سكان الشقق الأعلى ، والأسفل ..

كسور المفاصل والالتواء ، يصعب معها استمرارية زحف جسد عار ، وخال من أية أغطية يمكن أن تواري عورته ..

جسد ضرب بآلة ثقيلة ، بعنف يد قوية ، مشحونة بحنق عارم ، وسرعة فائقة ، كأن الفاعل كان متعجلا ، وراغبا في سرعة تكسيره ، وتعجيزه للحيلولة بينه وبين إمكانية وصوله إلى الباب ، وإسكات مناطق الصراخ برأسه . ليتمكن من الخروج ، من الباب إلي الدرج بهدوء ..

قاتل لم يكتف بتلك الضربات التشويهية ، بل أنهي عمليـــة التعجـيز بغرس عمود من الخشب في ثقب مؤخرة المضروب . عمود بطـــول نصف المتر ، غرس عمداً ، وبقوة راغبة في وصوله إلى جزء مـــن البطن ، وليتجاوز المثانة ..

عمود يصعب إخراجه ، أو لمسه بيد مكسورة المرفق .. وكأن الجسـد كان مهيأ سلفا لذلك الغرس البشع .. وقد حاول القيام لدي أول ضربـة ، وكان منطرحا على السرير ، ثم ركض نحو باب غرفة النوم هربـا من ضربات تلاحقه بنفس الركض ليكتم صراخـه المذعـور بعنـف المباغتة ، ويحدّ من انتشاره كفأر محاصر بالغرفة . وانفلاتـــه إلـى الصالة برأسه المنشق ، والآخر ينهال علي الذراعيـن ، والسـاقين ، مصمما علي تعطيل وإتلاف الجسد العـاري ، الأبيـض (المنتـوف) شعره كأنثي ، ليتكوّم علي جانبه مع دمه النازف علي أرض ملسـاء ، محاولا الزحف بذلك العمود المرتشق ، والذي يشبه يد قادوم مثـل الذي يستعمله عمال البناء في العمارات ..

كان يدرك ، مع خزيه المذعور ، أن صراخه ــ لـو خـرج ــ لـن يجدي ، ولن يستطيع الجيران ــ لو سمعوا ــ إنقاذه .. لكن ، علـــي الأقل باستطاعتهم إنقاذ جثته من التعفن .

مدركا – أيضا – أنهم سوف يشاهدون مشهدا مروعا يبعث على التقزز والغثيان وإشاحة الوجوه من عري كامل ، من عمود مغروس في المؤخرة سوف يفكرون بأشياء مكروهة ، يخجل المرء من مجرد تخيلها ، منظرا مشينا ، لا يليق أن يراه آدمي محترم ...

فليفكروا فيما يليق وما لا يليق .. المهم ألا يموت وحده ، غائبا ، منطويا على نفسه وراء الباب .. لم يعد يهم ..

فعند مشاهدته عاريا ، سيكون قد مات ...

منذ تسكين الأب ملجأ العجائز ، ورحيل الأم الأبدي ، وهجرة الأخ الثاني إلى المجهول ، يسمع الجيران المبجلون ، المحاطون بقشور المهابة ، والحالمون بهدوء ليلي دائم ، ذلك الضجيج بعمق الليل .. مضغوما كان ، ومنفرا ؛ يتسرب ، متواترا ، إلى مضاجعهم ، ويمس آذانهم . يشبه ضجيج أطفال يتراكضون في الشارع ، مع يقينهم من خلو الشارع الآن – بالليل – من شقاوتهم ..

الضجيج كان في الحوائط ، مخلوطا بأصوات بعيدة . هبد ، دبيب ركض أقدام مخنوق ، بوسط البناء ، بأعلى ، ربما ، أو بأسفل ، أو في الجوار .. يسري عبر الجدران ، ويتفرغ في الأدمغة . أصوات متباعدة ، متقاربة ، تؤرق نوم ساكن الشقة المقابلة ؛ فأنصت .

وأرهفت زوجته أذنها ، وقامت من جواره ، وراحت تمشي علي حذر . ألصقت صدغها بالباب ، غير عابئة لصوت زوجها ـ الـــهامس ـ بعدم التطفل .

لكنها أكدت له ، أن الضجة آتية من شقة الجار ، " سمير الصياد " .

دائما ما تأتي الضجة من شقته ، ولكنها تحدث عــــادة فـــي الســـاعة التاسعة ، وحتى الساعة العاشرة ، أصوات أغاني من جهاز كاسـيت ، أفلام فيديو ، مع تهريج . ويعقب ذلك هدوء ، كأنه يراعي الجـــيران فيما بعد العاشرة . !

ورغم أنه ضجيج صار مألوفا لهم ، إلا أنـــهم كـــانوا يتـــأففون مــع تغاضيهم ، قائلين فيما بينهم ، وبتعاطف خفي ، وما دام ينتـــهي قبـــل نومهم . شاب وحيد . شبه يتيم ، لا يجب أن نمنع عنه ابتهاجـــه مـــع أصدقاء يأتون إليه ، أو يأتي بهم يتسامرون .. لكـــن الآن ، وبعمـــق الليل ، في الواحدة ، ؟ الأمر يختلف ..

كان الصمت بعد الضجيج يحط عليهم ، كأنـــهم نـــاموا ، أو يفعلـــون أشياء تتطلب السكون والتركيز .. سكون كان الجيران يعجزون عـــن تفسيره ، أحيانا ، كانوا يلمحون بعض الرجال قـــادمين أو مغـــادرين بالليل ، أفندية تعدوا سن الخمسين ، أو أصغر ، أحيانا أكبر ، متأنقين

، عليهم سمات الحياء الذي كان يولد الشك بصدور الجيران ، كيف يصادق شاب نحيل ، هزيل مثله ، رجالا أكبر وأقوي .. ؟

الشك المراوغ ، الساكن بالأعماق ، دفع الجار للنظر من العين السحرية ومراقبة الباب المواجه . ليس تطفلا منه ، أو تجسسا من زوجته ، ولكن لمعرفة سبب الضجيج ومسببه الذي لم يراع حرمة الجيرة في ساعة متأخرة من الليل .

ضجيج جعل الجيران الآخرين ــ الذين لم يفتحوا أبوابهم بعد ــ يتجراون بتذمر ، ويتسمعون ، مع أنهم لم يكونوا يرغبون في مخالطة شاب منطو ، يعيش وحده ..

النساء ــ فيما سلف ــ كن يفكرن خفية ، فيما يفعله شاب وحيد بالليل. وفي ليال سابقة ، حاولن رصد تحركاته ، لعله ، ربما يدير الشقة بأعمال تخل بالآداب والشرف .. ربما يأتي بالنساء ، بالليل خلسة ، ويستضيف الرجال الذين من كل شكل ، و نوع .. تربصن ، وتوقعن رؤية امرأة غريبة تصعد ، أو تغادر الشقة . ويتكرر التربص ، ويطول ، بلا جدوي ..

زواره ، جميعا ، من الرجال الأنيقين ، المتسمين بالحياء المفرط الغريب ، شبه أساتذة وتجار ، فضلا عن شباب يشبهون الإناث المتحركات بخفر واستحياء ..

استغرب الزوج ، وزوجته للصمت الثقيل الذي حط علي باب الشقة ، صمت يجوب الدرج وبئر السلم ، ويحتوي الجيران ، ساور إدراكهم شك مشين كانوا قد فكروا فيه سابقا ، ونبذوه ، شك استفحل الآن ، علي الرغم من الخجل المصاحب له .

شك لا يمكن لرجل محترم أن يبوح به لزوجة محترمة ، أو ينطق به شاب أمام أبيه ، أو أمه ، أو تهمس به بنت لأختها . شك تسمو ضمائرهم عن الخوض في أسبابه .. الجار " سمير " لم يبلغ بعد الثلاثين ، رشيق ، ومؤدب ، وفي حاله ..

لم يره أحد يغازل فتاة أو امرأة ، ولم يكن يختلط بأحد منهم بشكل يمكنهم من معرفة طبيعته ، فقط ، كان البعض يستاء من طريقة تحريك جسمه وهو يمشي . حركات تسترعي النظر ، والانتباه ، حين يهبط ويركب سيارته الصغيرة ، وعند عودته وبرفقته صاحب.

كان يغيب أحيانا بالليل ، خارج البيت ، ويعود في اليوم التالي .. ويتساءلون وإمعانا في الشك لم لا يتزوج وعنده كل متطلبات الحياة التي تؤهل المرء للاقتران بامرأة ترعي شئونه ؟ الشقة والوظيفة والسيارة ، فما الداعي لبقائه أعزب وحيدا ، بلا امرأة تخز عين الشيطان المتربص بأعين الجيران ؟

تغول الصمت هناك ، .. فتح الزوج بابه ، علي حذر ، مشي بخطـــو وئيد نحو الباب المواجه ، وبرهافة أذن ، قرّب رأسه مــــن البـــاب ، متوجسا ، حط أذنه عليه . لم يسمع شيئا بــــالداخل . وكـــان يتطلـــع لزوجته الواقفة بصدر شقتهما ، كمن يستلهم منها الجرأة للدق ؛ فـــدق برأس إصبع حذر . توقع ردا من الداخل .. رد يمكن أن يحرجه ، لو سمع الجار ، وفتح ، وسأله عما يريد ..

دقة مستحية كانت ، لم تسفر عن شئ ؛ فنظـــر لزوجتـــه ، أشـــارت بإعادة الدق . فدق لمرة ثانية ــ مع تخمينه ــ ربما يكـــون نائمـــا ، ويصحو متكدرا ، فيعاتبه علي إيقاظه ؛ مع أنه لم يمض علي انتـــهاء الضجة بضع دقائق .. ولأن الصمت هامد بــــالداخل . دق بقلـــق .. ودق بقوة . وجاءت زوجته ودقت معه .

- أنا متأكدة أنه بالداخل .. لا ينام هو قبل الساعة الثانيـــة .. كـــان الدق تسرب إلى أعلي وأسفل ، وتحركت المزاليج إيذانـــا بفتـــح الأبواب . والزوج يقول متشجعا ، مراوغا نفسه ..
- الساعة الآن الثالثة . ربما لم يأت .. أيكـــون نائمـــا .. ؟! كـــان الجيران ينزلون ، ويصعدون ، ويتقابلون علي (البسطة) بآثـــار نومهم المفزوع ، والزوجة تقول ..

- ألم تسمع صوت التليفزيون والأغاني منذ قليل ؟

- سمعت .. وسمعت أصواتا تضحك وأصوات جري ..

- وسمعت أنا منذ ساعة أو أقل ، صوت الباب وهو يفتح ، و يغلـــق كأن أحدا جاء ، أو غادر الشقة ..

نعم ، فتح الباب ، وأغلق ، لآخر مرة ، وهما يعالجـــان ــ علـــي فراشهما ــ الأرق المبغض الناتج عن الضجة ..

- ربما صديق جاء له . ومشي .. وهو بالداخل ..

- سيارته موجودة تحت أمام العمارة .

- أنا سمعت صوت سيارة منذ قليل ..

كانوا يقولون وهم يدقون الباب بأيدي الضجر مـــن النـــوم الـــذي هرب .. يجب أن يفتح الباب الآن ؛ ليوبخوه ويؤنبـــوه ويعلمـــوه الأدب ، وليكف عن إحداث الضجيج الليلي الذي تحملوه كثـيرا .

لكن لا صوت ، فتحول الضجر إلى الشك ، والتخمين ، ..

- من منكم رآه لآخر مرة . ؟

- نحن سمعنا ضجة فظيعة منذ ساعة فقط .

- من ساعة ونصف ..

- نحن أيضا ، سمعنا نفس الضجة ، فوق ..

- لا بد من كسر الباب .. ربما أغمي عليه

- فعلا ، فهو ضعيف جدا ..

- لا يا جماعة ، نبلغ الشرطة أفضل ..

***

في الفجر الطالع ، فرض علي البيت الحصار ، وعلي شارع القـاهر ، المغرق في غبش الضبابة ، والهدوء الناعس ، والمألوف ، والـذي يحتضن أهله النائمين ، ولم يدركهم الحدث بعد . ولم يشعروا بطـوق العساكر المدججين بالبنادق ، حول الضباط المتسمرين وقوفا بزيـهم الأبيض تحت بريق النجوم ، الصقور ، والوجوه الممـهورة بالتـهجم المتوتر ، والتجهم الصارم ، وبقايا نوم ، جئ بهم عنوة ؛ ليحـاصروا سكانا ما زالوا نائمين .. سوف يفزعون ، عند اليقظة ، ويشـاهدون ، يتخيلون ذلك المشهد الرهيب ، يتألمون ، حين يعلمـون أن بوسـط بيوتهم الهادئة بيتا به قتيل ممزق البدن ، وفي مؤخرته (خازوق) ..

تعمد ضابط المباحث الشاب ، ورجال البحث الجنائي ، إخفـاء أمـر (الخازوق) منعا لتقزز الناس . لكـن الفضيحـة كـانت أكـبر مـن محاولات التكتم والإخفاء ؛ فعنـد كسـر البـاب ، كـان الجـيران المحتشدون بالفضول ما زالوا موزعين علي الدرج ، وقد أكبتهم روع

المنظر ، الباب كان منفرجا ، والجثة مكومة ، ملقاة قرب المدخـــل .. وعارية .. مشجوجة الـــرأس ، ودم ، مكســـورة الأطـــراف ، ودم ، مغروس في مؤخرتها عمود من الخشب المبروم ، ودم ، لم يســـعفه الوقت ليجف . عمود موغل حتى الأحشاء . وجه هامد ، نظرة توسل مفجوع ، أخيرة ، تائقة إلى الباب . حنك مفتوح على آخره ، مكتـــوم بصرخة لم تنطلق ، كمن تعمد كتمانها ..

ولإخفاء المشهد عن العيون ــ التي رأت ــ جاء أحد رجال البحـــث بملاءة سرير ــ أيضا مدماة ــ ، ألقاها على الجثـــة ، أمـــام ضـــابط المباحث الشاب الذي استوعب المنظر برأس ممتعض ، متذمر .. بشاعة . فظاعة . غثيان . تقهقر الضباط ، موليا وجهه بالتقزز .

- أحدكم حضر الحادث ؟ ...

سؤال جاء عفوا من ضابط شرد قليلا . سؤال غريب لجيران تبـــاعدوا بذعرهم ، على الدرج ، بالبيجامات كانوا وأقمصة النوم ، والشـــعور المشعثة . ولوا الوجوه المستاءة عنه ، ولاذوا بالصمت الذي فطـــن الضابط لسؤاله التافه ؛ فأرضى نفسه بأن دعاهم ، بـــأدب ، ليعـــودوا إلى شققهم ، ونومهم ..

استغربوا له .. كيف ينامون ، والفجر قد شقشق ، والروع ماكث في الرؤوس ، مثل الخازوق في الجثة ؟

كيف يغمضون الأعين ، حتى في الليالي القادمة ؟

كيف وشارعهم المعروف بالهدوء ، تحول لمعسكر يغص بالحركة ؟ .. عربات شرطة وجنود ، إسعاف ، وقادة أمن موقرون ، لم يحظ المرء برؤيتهم إلا في احتفالات الشرطة ، أوالتلفاز ، أو في الجرائد .

•••

استيقظ شارع القاهر ، فتحت نوافذه والعيون ، علي الدهش المبهر ، والتساؤل عما جري بالمنزل رقم (٥) الذي يتوسط الشارع . المباغتة الصادمة فوق احتمال الصمت .. تجئ الإجابات عبر الألسنة كالهمس القلق ، مستحية ، من أفواه المتفرجين الذين كانوا علي الأرصفة . أجوبة طائرة تجوب النوافذ والشرفات ، الأسفل فالأعلى ، ولم يستطع البعض نقل الحكاية بالتفصيل والعلن ، بأن في مؤخرة المقتول ارتشق خازوق ..

أدرك البعض الحكاية ، فاقشعر بالامتعاض والخزي والسكوت ، وأزاح عياله إلى الداخل مواربا بابه ، وعلي أطراف الألسنة أسئلة مازالت معلقة ، ومرعوبة ..

رفعت الجثة ، ولم يستطع أحد سحب الخازوق ..

انهمك رجال البحث الجنائي في رفع البصمات التي فاقت كل توقـــع . بصمات تعددت ، اختلفت .. أصابع طويلة ، أصابع قصيرة ، دائريـــة ، مفلطحة ، مطبوعة علي خشب قائم السرير ، متقاربة ، ممتزجـــة . ومتصلة براحات أيدي ، كانت تقبض ــ حتما ــ علي القائم بأوقـــات شد ودفع ، ومنها المطبوع علي منضدة بـــالجوار .. علـــي مـــائدة الطعام . مئات الأصابع . بعضها مسح بالتقادم ، وبأصابع مســتجدة . أصابع لرجال اختلفت أعمارهم ،علي الحوائـــط والأبـــواب ، علـــي التليفزيون . الكمودينو المجاور للسرير . علي الدولاب المخلوع أحـــد أبوابه .. كأن القتيل لم يفكر ، أو يهتم ــ يوما ــ بتنظيف البيت مـــن تلك الآثار اليدوية ، الواضحة ، والمتراكمة بمرور الزمـــــن ، كأنـــه تعمد إبقاءها بكل ركن وزاوية ، كذكرى عزيـــزة ، حميمـــة لأيـــام ، وليال مبهرة ، لم يكن يرغب في نسيانها ، أو محوها ملامسات كـــانت ومداعبات ، وروائح رجال ــ أحبة له ــ كانوا هنا ، معه ، أحبـــهم ، وأحبوه . خلفوها له ليتسلي بها ، بأوقات فراغه النادرة ..

بصمات ، علي أكواب زجاجية قديمة ، تركت عمدا بداخل صنـــدوق كرتوني أهمل بركن المطبخ ، بقعورها (تفل) شاي يابس ومتعفـــن ، علي جدرانها آثار شفاه ــ مؤكد ــ وأصابع ، وأغبرة وحشرات .

وأكواب أخري جديدة وضعت فوق الثلاجة . مرهقة كانت عملية رفع البصمات ، وغير مجدية ..

فضول التقزز دفع الضابط لفتح الثلاجة .

علي الرف الأول طبق . قطع جبن وزيتـــون ، لانشـــون ، وحـــلاوة وعلب تونة .. علي الرف الثاني قطع دجاج مشوي ، وزجاجات ميـــاه غازية ، وبيرة ، وعلب دواء سعال .. و ...

كان الباب الصغير العلوي مغلقا بالثلج المتجمد ، ومزنوقـــا بقطعـــة خشب لتلف قديم به ..

سحب قطعة الخشب بقوة ، فتساقط الباب ، ليبدو البخار كثيفا بـــالداخل المزدحم بأكياس نايلون بيضاء ، مطبقة بعناية ومرصوصة ، بداخلـــها شبه أقمشة بيضاء في حجم قبضة اليد .. دفعه الشك ؛ فشـــد كيســـا ، وأسقطه علي الأرض .

وداس عليه بقوة ارتيابه .. انفلق الكيس عن سروال داخلي لرجـــل .. ألبسة أخري مطوية علي وسخها القديم ..

سراويل نصف فخذ ، وأخري صغيرة ، متنوعة الألـــوان ، توحـــي بقدرة أصحابها المالية . فقراء ، كانوا ، أو أثريـــاء ، تحمـــل أختـــام المصانع المنتجة .

علي منضدة بالصالة ، لصيقة بالحائط ، آثار مربعة لقـاعدة تلفـاز ، كان هنا ، ورفع ، مخلفا أغبرة في حواشيه . وبجانبـه مربـع آخـر محاط بالغبار ، وبعض شرائط فيديو كاسيت ، أجهزة ثابتـة كـانت واختفت ـ مؤكد مع أشياء أخري سرقت ولم تعرف بعد ..

الظاهر من الأشياء سرق بسرعة ، فالأدراج لم تفتح .

الدولاب بابه أغلق ، علي أطراف ملابـس غريبـة . دليـل تعجـل السارق ، وإنهاء مهمته قبل اكتشاف أمره ، وقبل طلوع روح القتيـل لم يدقق في البحث مكتفيا بما سرق ، والهرب قبل الساعة الثانية ..

سحب الضابط ضلفة الدولاب ، بحذر ، فمالت علـي جـانب لتلـف بالمفصلة ، مرتكنة علي شماعة قائمة فمالت علـي شـيش الشـرفة الموصد . مالت بملابس معلقة ، مع (فوطة) وجـه مبتلـة . وفـي الدولاب قمصان نوم حريمي ، شفافة ، علي شماعات كـأن بـالبيت امرأة مقيمة ، وبقعر الدولاب بعض شرائط فيديـو لأفـلام مثـيرة ، وألبوم صور مع رجال مختلفي الأعمار . وبدرج الكمودينو المجـاور لفراش الموت مبلغ من المال مربوط فـي (رزم) أيقـن الضـابط أن الحظ لم يحالف اللص !

بجانب النقود بضعة شرائط دوائية لتقوية الأعصاب ..

يأس مكظوم بامتعاض ، ورغبات تقيؤ . اختلجت بصدور الرجـــال ، وتلاقت أعينهم الحائرة . بلحظة انهماك الضابط في البحـــث . جانبـــا عند أسفل السرير . هناك قميص نوم برتقالي منزاح إلــــي الداخـــل . زجاجة بيرة بجانبها مسكوب سائلها علي سجادة قديمة . أجزاء عظـــام دجاجة مشوية ملقاة بتبعثر عشوائي . تفاحة مقضوم منها .. وصينيـــة مقلوبة ..

انزياح وبعثرة بمعرفة أيد نافرة ، وأقدام تحركت بغضـــــب .. علـــي الشماعة المائلة ، بجانب (الفوطة) ، بنطلون (جينز) ضيق ، قميـــص أزرق ، بنطلون بيجامة كريه الرائحة ..

فض الضابط محتويات جيوب البنطلون ..

بطاقة شخصية .. سمير عبده الصياد .. مواليد إســـكندرية .. ســـجل مدني محرم بك .. ١٩٧٥ .. الديانة (...) .. أعزب .. فصيلـــة الدم .... مستخلص بالجمرك . شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية . هاتف محمول .. بعض النقود .. (أجندة) تليفونات صغيرة بـــالجيب الخلفي . (أجندة) أخرجتهم من دائرة اليأس ، إلـــى إنفراجـــة أمـــل واهن ، لكنه بسط تجهمات الوجوه ..

بـ (الأجندة) أسماء ، أرقام .. كل صفحة مزحومة ، ومنظمة الاسم يجاروه الرقم ، أسماء مشطوبة ،أخري حولها دوائر بقلم أحمر. المفاتيح الكودية للأرقام تدل علي تفرق أصحابها بأنحاء المدينة .. مفاتيح .؟

القاتل لم يستعمل مفتاحا عند الدخول . !

جاء مع القتيل .. سهر معه .

وخرج كما جاء ، ولم يترك ما يدل عليه ..

فقط ، الخازوق الذي لم يكن عليه سوي دم " مطرطش " ..

قبض الضابط علي (الأجندة) ، ببعض راحة مسته ..

••

٢ مقتل البراءة

للوهلة الأولي ، يساور عبد الجواد خجل غريب ، مفزع ، مــــؤرق ، ربما ، منذ خمسة وثلاثين عاما ، ركضه العمري . كائن مخشوشـــن الجانب .. ينمو وسط عائلة صغيرة ، نزح ربـــها الجنوبـــي ، يـــابس التكوين ، من عمق الصعيد ليعمل بناء ..

عائلة تعتقد أن لبس البنطلون عورة . فتح الفم بتوافه الكلام والضحـك المطلوق جذافا ، عورة . استباق الصغار علي موائد الطعـــام ، قبــل الكبار عورة . عري الطفل ، بعد بلوغه العاشرة ، عند الاســـتحمام ، أمام أمه ، عورة .

خجل مس روحه . لم يشعر بمثله ، منذ انصهاره فـــي كليـــة صنـــع الرجال . حمل الأرواح علـــي الأكـــف ، ومجابهـــة أربـــاب الشـــر والجريمة . لم يساوره ، ويحول نظره ، المأخوذ ، عن بدنه ..

خجل بجانب بعيد من إدراكه .. يتصاعد بامتعاض ، رويدا ، ويطفـــو علي الدماغ ، مع بغضه من نفسه . نفسه التي تقبلت فكرة الخجـــل ، وسريانها بشعوره ، ثم تأنيب روحه . خجل مـــن وقوفـــه عاريـــا . منعكسا في مرآة الحمام . متحررا من (هدومـــــه) كعادته . ومتأهبا

لممارسة طقسه اليومي .. تخليص روحــــه مـــن انضبـــاط ضـــابط الشرطة ، بوضع نفسه تحت مياه الدش الباردة يسقط متاعبه وهمومـــه ، و .. ينسلخ منه المواطن عبد الجواد ، الموظف العادي البسيط .

خالعا قناع الصرامة الخانق . ناسيا ما يمكن التلفظ به ، فـــي أوقـــات الانفعال ، من بذاءات تخجل منها الزوجة ، والأولاد ، لـــو ســـمعوه يتفوه بها ..

كان يجب محو العفن العالق مع المـــاء المنســـاب ، الجـــاري نحـــو البالوعة . لكن لم يفلح الماء ، ولا محاولات التغطية بأفكار أخـــرى ؛ لنفيه ، أو استبعاده . اختلف الشعور .. تعطلت طقوسه عن مداراتـــها ؛ فاستنفرت برأسه ــ القلق ، نفس الخجل المؤرق .. أيخجل المـــرء من عريه ؟ مكشوف البدن بين مربعات سيراميك حوائط ؟ حيـــال مرآة طولية لباب حمام مغلق ؟

هو وخياله ؟ وعريه ؟ ومؤخرته ؟

سخان يتطلع إليه من عل .. حوض ثـــابت وردي اللـــون ومـــاجن ، يتهكم .. مرحاض يحتوي المؤخرة وماسورة مرفوعة تـــرش المـــاء وتسخر من ثقبه الذي يوجهه إليها بكامل رغبته . أحال تفكيره إلى مد يده . فتح مقبض الدش ليقوي الماء الهابط ، ليحدث صوتا آخر ،

مغايرا .. يبعد عن الذهن مشهد الخازوق محـــولا تفكــيره لأشــياء أخرى.

عند خروجه بالبيجامة ، سوف يفلت (الشبشب) من قدمه .. يتوجـــه إلي المطبخ ، رأسا ، ويحك جسده ، عند المرور ، بجســـد زوجتـــه الواقفة تعد وجبة الطعام .. يعد براد الشاي والكـــوب " أبـــو ودن " .

سوف يتصفح جريدة الصباح المؤجلة للمساء ..

حتما ، بها أخبار إجرامية جديدة ، يمكـــن أن تعيـــد لرأســـه مشـــهد الخازوق الغائر ....

لكن . عندما يخرج ، سوف يقعد مع ولديه ، يكلمهما ، يسألهما عـــن واجباتهما المدرسية . أفعال لم يتعودها الأولاد منه ؛ لشـــدة إرهاقـــه اليومي ، وتأخره .. لكن . سوف يفعل ، ويسأل أمهما عمـــا فعلـــت طوال اليوم . مع أنه لم يكن ، أيضا ، متعودا علي طرح الأســـئلة ، التي ــ حتماــ سوف تثير شكوكها ، وتضطرها لسؤاله عما حدث لـــه اليوم .. وسوف يختلق لها كذبة ــ وهو لا يعرف الكذب ــ يـــواري بها ما يعتمل بصدره من قلق يمكن أن يفضحه ..

أيبوح لها بأن رؤيته لنفسه عاريا أخجلته ؟

أو يصرح لها بما شاهده في جريمة ، و .. فظاعة ؟

لكن خانه النظر . أجبر علي لمح خياله في المـــرآة ، مـــهما حـــاول التهرب ، العري والمؤخرة ، مطاردا لخاطر لامس إدراكـــه .. لـــو ارتشق خازوق ، هنا . ! . وترك المرء عاريا بوسط شارع ؟

ملعون كل خاطر يشعر الواحد بالدنس ، الخجل ، كبت الحريـــة ، و التحرر الشخصي بالتحرك ــ عريانا ــ داخل حمامه ، فـــي بيتـــه . غطي عريه بارتداء هدومه الداخليـــة التي لـــم يرتـــح فيـــها تحـــت البيجامة ..

ولأول مرة ، يغادر حمامه صامتا ، مكبوتا ، متوجها ــ دون كلمة ــ لغرفة نومه من خلال نظر زوجة تضع وجبة طعـــام العشـــاء علـــي منضدة الصالة . هو يومئ لها ، بتجهمه ، أن تأتي .. تتبعه . إيمـــاءة تعني رغبته فيها ، الآن ، وقبل العشاء . إيماءة أدهشتها ، أوجمتـــها للحظة ، أشعرتها باحتمال وجوب مشاجرة لو رفضت مطلبه الغريـــب المفاجئ ، أو فكرت في التأجيل لبعـــد العشـــاء ، أو محتجـــة بعـــدم استعدادها النفسي في غيـــر المواعيد المتفـــق عليها مســـبقا خـــلال الشهر ..

انصاعت مهرولة بغضب دفين ، وأغلقت باب غرفة العيال . لم يـأكلا بعد ، ولم يأن موعد نومهما !؟

انصاعت دون تهيئة الروح ، والجسد ، دون قميـــص شـــفاف ، دون تجميل كمألوف الحال .. !!

هكذا يرغبها الآن بثوب البيت المقفل ، وروائح ما كـــانت تفعلـــه .. أتاها باهتياج مفتعل وصامت ، محاولا إفراغ شحنة غضب .. يمحـــو بها ، وفيها ، شعور الضآلة ، انتكاس روحه ، رؤيته لعريـــه ،إثبـــات الفاعل ، وليس المفعول به ..

دقائق مدهشة ، استلبت بدنها الذي تلقاه بخمول مستغرب ثم بدأ ينفعـل رويدا ، مستجيبا لنشوة ، مفتحا مسامه ، متطلعا إليه بكـــل ذراتـــه .. جسد راوغه خمود مباغت ، أكثر استغرابا ، لسحب الـــزوج مـــلاءة بالجوار . تعمد تغطية عريهما . فعل جديد ، مريب ، لأول مرة يفعـل ويستر نفسه معها وهو الراغب دوما في العري الكامل ، أثناء الجماع ، في الضوء ، ومتعة النظر في مرآة " التسريحة " عنـــد التـــأرجح ، الضغط .. !!

يفعل ، الآن ، كأنه يخشي عليها من لفح الهواء ، والصدأ ..

احتملت ، هي ، معيدة لروحها لحظات النشوة الهاربة ، مستمسكة بـــها ، وقد تجيشت مشاعر اللذة في بوتقة الجمال بالغياب .. غياب جعلـــها تمد يدها بالذراع ، دون وعي ، وتلامـــس طرف مؤخـــرته جانبة ،

فانتفض كمرتعب ، زائحا يدها بحركة تذمر مباغتة .. حركة ــ رغم حدوثها الغريب ــ إلا أنها اعتبرتها مزحة .. مزحة سخيفة ؛ فأعادت اليد ملامسة الظهر ، الكتف ، الصدر ، والرأس ، مع الوجه ، دون أي تذمر ..

ابتسمت برغبة جامحة لمعرفة ما استجد عليه ، موحية لنفسها عدم شعوره بحركة الزجر في لحظة بلوغ النشوة منتهاها ، نشوة ، لحظية ، أنسته ، بالفعل ، المشهد الخازوقى الفظيع .. لكن عندما عاد إلى الحمام تجدد المشهد بقوة مؤلمة ..

***

كالريح الآتي من البحيرات الراكدة ، المسكونة بالجيف والعفن ، الريح المحمل بالأغبرة والهاموش .. انتشر الخبر .. شاع بين الأفندية المتألقين ، الغارقين في اللذائذ المبهرة ، على الرغم من عدم إذاعته ، أو نشره في الجرائد ، ولم يكن قد انفلت من نطاق موقع الحادث ، أو تعدى ، بعد ، شارع القاهر .

كيف طار ، وحام ، وهام ، ارتفع ، وجاب جوانب المدينة ؟؟

صدم أسماع كل الأحبة المغرمين بالانحناء ، والانحناء ؟

ليؤرق مضاجعهم ، يزلزل رؤوسهم ، برعب التوجس ، ويتوارون وراء جدرانهم ؟

كيف بلغهم الخبر قبل رفع الجثة من مكانها ؟ ومن بين أهل الشـــارع الذين بوغتوا بالخبر لأول مرة ؟ من وسط رجـــال وشـــباب مغلفيـــن بالجدية والدهش الوقور ، والسؤال الرزيـــن ، يســـتطلعون الأمـــر ، بعضهم من البعض . ؟

الخبر لم يزل محصورا بين جدران البيت وسكانه المكظومين بـــالروع ، ورجال المباحث ..

بالطابق الثاني ، وراء الشرفة المتربة ، تلك ، شاب قتل ، يقيم وحده.

تسرب الخبر ، في الخفاء إلي أسفل البيت ، حيث تزاحمـــت عربـــات الشرطة والإسعاف .

دقق بعض الفضوليين لمعرفة التفاصيل ، تلك التي مـــن ضمنـــها أن بمؤخرة القتيل ، خازوقا ...

خازوق حين تخيلوه امتعضوا برغبات فـــي التقيـــؤ ، وتولـــوا وهـــم يبصقون ، وامتقعت وجوه ، وانسلت تغـــادر المكـــان ، والزحـــام ، بتوجس

ـ سمير قتل ؟!...

منهم من يقيم بنفس الشارع ، والشوارع المجاورة .

علي الأبدان حملوا الخبر .. كان ضاغطا عليهم ، غادروا متوهميـــن ما يمكن أن يكون بعد إشاعة الخبر بالواقعة ، وكان هانى بائع الدجاج لم يفتح كعادته كل صباح ..

هانى الشاب ، المزهو بقوته ، ووسامته ، جاذبة بعض فتيات الشـــارع ، هو زوج لامرأة شابة ، حسناء ، وأب لطفلين صغـــيرين ، يقطـــن ببيت علي إحدى نواصي الشارع .. بيت يضم في طوابقـــه العليـــا ، أخوته الكبار وعائلاتهم الوقورة ..

انصعق ، مبكرا ، بالخبر ، واستغرقه الصمت والكمون بقعر بيتـــه ، مع زوجه ، المندهشة لصمته المريب ، لم يكن يوما ، منطويا هكـــذا كخائف .. سألت .

- مالك .. ؟

- متعب ...

- متعب .. ؟ متعب لدرجة إشعال صدرك بالسجائر علي الصبح ؟

تفاقم توجسه المصمت ، والتجهم ، قالت بتساؤل ..

- مع انك كنت بالليل مبسوطا .. ! ماذا غيرك .. ؟

- قلت لك متعب ..

- منذ عدت من الشارع ، وأنت ركبك الهم .. ماذا حدث .. ؟

تذمر ، قائما ..

- دعيني الآن ..

- والدكان ؟ نترك الدكان مغلقا ؟

- لن أفتحه اليوم .. أنا تعبان ..

- تاجر الدجاج سوف يبعث الحصة بعد قليل .. ؟!

أوشك علي الصياح :

- الشارع ، كما ترين ، مسدود . ملآن بالحكومة .. !!

استغربت ..

- مال الحكومة بأكل العيش ؟

كان يروح ، ويجيء كدجاجة في قفص ..

- الشارع مسدود ..

- حجة فارغة .. أكيد ، هناك أمر آخر يمنعك ..

تضجر صائحا ..

- كيف أفتح ، والشارع به قتيل ؟

- تنبهت فزعة ..

- آه ه ه .. صديقك !؟ .. منذ متي تصاحب ذلك الرقيع ؟

ثائرا قال .

- زبون عندي .. زبون ..

- زبون ؟! ، وتذهبان أحيانا ؟ وتخرجان معـــا ، وتختفيـــان ســـويا بالليل ؟ مشاوير يعلم بها الله .. وتعود منها نشـــيطا ، ســـعيدا ؟ وكنت تفعل معي ..... ؟

علي مضض ، مقرون بحياء مضغوط ، سكتت ..

تخاذل قاعدا . لم يقو علي المواجهة بما يـــؤرق الـــرأس ، يتوجـــب الصمت . احتمال ما يصدر منها من تأنيب ، توبيخ ..

الصمت ملاذ مؤقت . حصن المتعب ، المرتعب ..

كل شئ يمكن أن يهون .. إلا (شئ واحد) ليس بإمكان المرء البـــوح به . التفريط فيه .. جسد المرء ..

حياؤك ــ **هاني** ــ تخيلك لذاتك ــ **هاني** ــ انحناؤك ، غياب الدمـــاغ في لحظات المتعة ــ **هاني** ــ إبراز أعضائك المهمة ، المســـتورة ، بكامل وعيك ورغبتك ــ **هاني** ــ أعضاؤك التـــي تتصـــل بمشـــاعر الرجولة فيك ، تنتهك هناك بإرادتك ــ **هاني** ــ تنتهك ، الآن بصـــوت زوجتك ، مجرد كلامها معك .. تثور .. تزمجر .. ؟؟! .

هاني ... أنت قذر ..

كانت تقول ، وهو غارق في تفكيره الذي أخمده ..

- اذهب يا **هانى** وافتح الدكان ..

صمته يجثم علي خوفه . لو علم الناس بالشارع ، وبـــالبيت . الذيــن يوقرون أخوته ، نزاهته ؟ ..

الذين يلقون عليك سلام الصباح ، والمساء ويبتاعون منـــك الدجــاج متعمدين ، لخلقك الطيب .. الزائف .. **هانى** ..

لو توصل إليك البوليس .. ؟! .. **هانى** ..

- ألن تفتح الدكان .. ؟ سأذهب أنا وأفتحه ..

كانت تقول . وكان سادرا في أفكاره ..

حتى لو توصل إليك البوليس ، لن يستطيع إدانتـــك ، إثبـــات تهمـــة انحناء ضدك ، ستقول ، إن سألوك .. مجرد صديق بحكـــم الجــيرة بشارع واحد .. زبون يشتري منك الدجاج .. أنت لم تصعد إليه منـــذ وقت طويل ، تجاوز الشهر . قل لهم ، لو استجوبوك ، أنه يســـتحق الموت ، ولو تعرف أنه هكذا ، شاذ ، ما كنت عرفته أبدا .. **هـــانى** .. **هانى** .. مات .. نعم .. مات وانتهي أمره بإفشاء ســـره المـــروع .. **هانى** .. افتضح ، وانكشف بغرس الخـــازوق والعـــري ، **هـــانى** .. مرشوقا في المؤخرة ، وإن لم يكن الخازوق موجـــودا ، مـــا كـــان البوليس تعرف علي شذوذ .. **هانى** ..

- سأذهب أنا وأفتح الدكان ..

لم ينطق ، علي الرغم من نبرة التهديد التي تعلقت بلسانها الآن بـأن تذهب وتفتح الدكان بنفسها . دكان لم تقف به يوما بائعـة ، لانتحالـه دور الرجولة .

لم ينطق ، أو يعترض ، بل أنهي تحركه المكوكي أمامـها ، بحمـل جهاز الهاتف ، متوجها به لغرفة النوم ، وأوصد علي نفسه الباب ..

وراح يهاتف كل الأصدقاء ...!!

***

توصل عبد الجواد ، سرا لعناوين أرقام بعض هواتف الأجندة .. صاحب هاتف الرقم الأول ، والمقوس بالأحمر ، لم يكن مذكـورا بالأجندة ، لكن اسما لشخـص آخر يجـاور الرقـم ، داخل القوس ، " فيدريكو" .. ارتاب منه عبد الجـواد ، وأحـال رأسـه لملابسـات الجريمة ، احتمال علاقات بين المقوس ، باعتناء ، والقتيل .. بمنطقـة أخري ، خارج نطاق محرم بك والواقعة فيها الجريمة والتي تخصـه كضابط مباحث ، لكن ذلك لا يمنع تحرياته ، بالاتفـاق مـع النيابـة وضابط قسم المناطق الأخرى ..

فتح باب العربة الجيب ، وقعد ملموم البدن ، صامتا ، شبه متشـــنج ، مواريا شعوره السابق بالخجل ، والوجل منه . إلى جـــانب ســـائقه ، المساعد الكهل الذي لمح تشنجه بطرف عين ، واستغرب ، منتظـــرا فك ذلك التشنج غير المألوف لضابط شاب طيـــب الخلـــق ، يعتـــبره صديقا ، يشاركه متاعب العمل وخطورته ، توقع لين جموده بعد حين ، بعد سير العربة من أمام القسم . إلا أن عبد الجواد لم ينطـــق ، إلا بدمدمة مضغومة بصباح الخير ..

أجاب السائق ، بصباح النور . وصمت ، لامحا التجمـــد المتعمـــد ، لشاب كان يضحك قبل أمس ، ويتحدث في أمـــور الدنيـــا ، معـــه . وأحيانا يتثاءب ، ويتمطى ، فاردا ذراعيه وساقيه على نفـــس المقعـــد الملموم عليه الآن . !

" ربما لم ينم بالأمس جيدا " فكر السائق ، وربما تقلص داخل ذاتـــه بسبب انشغاله الشديد بغموض جريمة الأمس ..

سلكت العربة شارع الرصافة ، الكوبري ، وابور المياه ، باب شـــرقي ، ليكون خارج دائرة قسم محرم بك ، إلي الشلالات .

توغلت العربة في شمس الكورنيش ، متوجهة لمنطقة ميـــامي حيـــث عنوان رقم الهاتف .. ولم ينطق الضابط بكلمة . فقط ، كان يراقب ،

بتتابع ، أبدان السائرين علي الشاطئ ، نصــف عرايــا ، يتبخــترون بليونة ، ورعونة ، تصعّب تحديد الفتي من الفتاة ..

***

بركن من زقاق جانبي من الشارع العمومي الكائن به العقار المطلوب ، توقفت العربة .. هبط عبد الجواد بتجمده الغريب ، ساحبا ، خلسة ، طرف الجاكيت من الخلف ، اعتقد السائق أنه يداري مكان مسدســـه المعلق بحزامه ، وهو يقترب من عمارة شـــاهقة ، يحـــرس مدخلـــها الزجاجي ، بواب كهل ، أسمر ، معمم . كان يدخن ..

الشارع كبير ، واسع ، مصفوفة أبراجه العاليـــة ، تحـــف أرصفتـــه سيارات فاخرة ، بوتيكات فخمة ، وباعة ، وناس بلباس البحر ..

لمح البواب اقتراب الرجل نحوه بتأنق الواثق ، أيقن أنه قادم للبحـــث عن شقة خالية ، فأعد اعتذاره . كل شقق الصيف المفروشة شغلت .. ورمي عقب " سيجارته " المشفوط دخانها لآخر الفلتر ، متأهبا لقولـــه المعهود لكل سائل .. لا يوجد شقق خالية ..

كان عبد الجواد قد اقترب ، وتعمد النظر إلى العقب المرمـــي وآخـــر دخانه المتصاعد .. توجس البواب ، حين حدق بوجهه الرجل الغريب ، وأحس أنه أخطأ بإلقاء مشتعلا أمام رجل متأنق ، صارم الملامـــح ، لم ينطق بكلمة ، وكان يطيل النظر في مدخل العمارة الفخم ..

بتكاسل ، قام البواب من فوق أريكته المستطيلة ، مخلصا نفسه مـــن ريبة الهاجس الذي مسه ..

- لو كنت تبحث عن شقة .. لا يوجد مفروش مع الأسف ....

لكن عبد الجواد باغته بالجلوس علي الأريكة ، كرجل أتعبه المشي ..

- ومن سألك عن شقق مفروشة . ؟

استغرب البواب لجلوسه علي أريكته المتواضعة كصاحب قديم .

- ولا يوجد شقق ايجار ...

- أنا لا أريد شقق ..

قال عبد الجواد . وسحب الرجل من يده ليجاوره الجلوس ..

اقشعر بدن البواب ساوره نفس التوجس المبهم . قال مستغربا .

- لا تريد شقق ؟! ماذا تريد ... ؟!

عند قعوده ، لامس فخذ عبد الجواد الذي تباعد قليلا ، بقول ..

- أريدك أنت ..

- أنا .. ؟

ابتعد البواب شبه خائف ــ وعبد الجواد يهمس .

- أنت خائف ؟

- أنا لا أخاف غير الله يا فندي ..

- لكن ، ونعم بالله . يبدو عليك الخوف .. ؟!

ضجر البواب وكاد ينهض ، فأمسكه عبد الجواد مهدئا ضجره ..

- أعرف والله ، أن الصعايدة لا يخافون . أنا مثلك ، صعيدي ..

- .. أهلا وسهلا ... يا فندي .. لكن . ماذا تريد مني .. ؟

- أريد معرفة ساكن هنا ..

- ساكن ؟ من هو ؟

- اسمه فيدريكو صابونجي ..

انفرجت أسارير البواب ، وقال بفخر وإعزاز .

- الخواجة .. ؟ ونعم الناس ..

- الخواجة ؟ هو .. تعرفه جيدا ، طبعا ؟

- عز المعرفة .. ساكن في الدور الثالث .. لماذا ؟

- ساكن من زمان ؟

- من مدة طويلة .. رجل طيب .. لماذا ؟

- يقيم هنا دائما .. ؟

- أحيانا يقيم ، وأحيانا يسافر .. يغيب ، ويرجع .. لماذا ؟

- يا أخي صبرك بالله .. سوف تعرف لماذا .. ها نحن ندردش ..

- ندردش ؟ .. هو أنت لا تعرفه شخصيا ؟

- أريد التعرف عليه ..

- لك أحد عنده ؟ ، عندك مشكلة في السفر ؟

ومض برأس الضابط خاطر ، أشرده للحظة . قال :

- أهو مهم لهذه الدرجة ؟! ماذا يعمل ..؟

- يعمل في السفارة التابعة لبلده ..

- سفارة .. ؟ !

- نعم . في السفارة .. في شارع فؤاد . عند ساعة الزهور ..

مرة أخري ، شرد الضابط . والبواب يقول بأريحية ..

- لو كنت تريد منه أية خدمة . مستعد أكلمه لك . هو يعزني جـــدا .. رجل يحب الخير .. صابونجي !؟ أيوجد رجال مثلـــه الآن ؟ أخلاق ، وطيبة ، وإنسانية .. ابن أصول ..

وبغتة ، كف عن كلامه المرسل في محاسن الخواجة ، وسأل .

- كيف لا تعرفه ، ؟ والناس كلها تعرفه ، أ لك عنده أحد ؟

- أحد .. ؟

- نعم .. أم تريد طفلا .. ؟

- أريده هو ..

- أكيد لك طفل ..

اندهش عبد الجواد ، وتساءل ..

- أريد طفلا ؟ لك عند طفل ؟! ما هذا الكلام ؟

ابتهج البواب ، قال .

- هذا هو الخير الذي يفعله ..

- وما علاقة الخواجة بالأطفال ؟! . غريبة ..

- ما غريب إلا الشيطان يا فندي .. أنا أنورك ..

- نعم .. نورني ..!

- بجانب عمله في السفارة ، يدرس أحوال الناس ....

- أحوال الناس ! ؟ ..

- خصوصا أطفال الشوارع ... اليتامى ، المحرومين . الضائعين

كان الخاطر الذي ومض برأس الضابط ، تتضح بعض معالمه .

- أطفال الشوارع .. ؟ وماذا يفعل بأطفال الشوارع ؟

- نعم . هذا هو الكرم .. كلما وجد طفلا ضائعا جاء به .. يأويـهم . يطعمهم . ينظفهم . و ......

- وبعد كل هذا الكرم ، ماذا يفعل بهم ؟

انداحت بهجة البواب ، وعبس وجهه .. قال

- ماذا يفعل بهم ؟ الله أعلم يا فندي .. يأويهم .. و .. فقط ..

صمت البواب علي ارتيابه القلق .. في حين أخرج الضابط صـــورة ، " كارت بوستال " أراها للبواب وقال ..

- تعرف صاحب هذه الصورة ؟

دقق البواب في الكارت ، وقال ..

- نعم . كان يجئ أحيانا مع الخواجة ..

هاجس الخوف أضجره ، فتساءل .

- لو أعرف ما الذي تريده ؟

لم يأبه عبد الجواد لتساؤل البواب . قال واجما ، مواريا الصورة

- الشقة ملكه ؟

- سكنها مفروش ، وبعد مدة اشتراها ..

- طبعا .. ليأخذ راحته في إيواء العيال ..

ضج البواب لغموض الأسئلة ، ولخوفه الدفين .. قال الضابط :

- قلت لي أنه يعمل في السفارة ؟

- ... ويدرس الحياة ، هنا .

- عن طريق العيال . ؟

- هو يقول .. أنا لا أعرف ...

- ولم تفكر أنت ماذا يدرس بالعيال ؟

من ضيق روحه ، وارتيابه ، أخرج البواب علبة سجائره ، قدم واحدة لعبد الجواد كصديق أعلمه بما غمض عليه . منذ جاء ليعمل بوابا ..

- شكرا .. أنا لا أدخن ..

قال الضابط وهو يضع ساقا علي ساق . والبواب يشعل سـيجارته ، وقد لمح بروزا واضحا بجانب خصر الضابط أكد هاجسه المـواوغ .. الذي يجاروه ، علي الأريكة ، ضـابط .. وهـذا مسدسـه . فـأبدي شجاعة استمدها من شعوره بثقة المواطن الشريف ، وفكر في رمـي السيجارة ، لكنه عدل مطمئن البال ، متأهبا لإجابات أسـئلة أخـري محتملة من ضابط أظهر له الود الحميم بالجلوس إلى جواره .. قال :

- كل السكان هنا يعرفون أنه يدرس أحوال الناس ....

- ولا تعرف شيئا عن العيال .. ؟

- صدقني سعادتك .. ونورني ..

فوجئ عبد الجواد بكلمة [سعادتك] ، فابتسم لذكاء البواب

- أريد معرفة كل شئ ..

- يذهبون معه أحيانا . ويعود بعضهم ، وبعضهم لا .. يعـود ، إلا بعد ذلك ... طبعا سعادتك مصري صميم .. ؟

- مصري وصعيدي .. لماذا ؟

- لأن أغلب أصحاب الخواجة من الأجانب ، منهم أولاد بلد ، نـاس أكابر . ضروري سعادتك واحد منهم .. ؟!

استغرب عبد الجواد ..

- أصحاب من الضباط ، أيضا ؟

- أقول لسعادتك ناس أكابر .. أكابر . أكيد منهم ضباط ..

ران صمت مشوش عليهما ، للحظة ، احتوت رأس الضابط ، مفكـرا بنفسه ، وفي هؤلاء الأكابر ، في تلك السفارة الرابضة بشارع فـؤاد ، بجوار حدائق الشلالات ، واجما ، سأل عبد الجواد ، البواب :

- كم طفلا عنده ...؟

- لا أعرف عددهم ..

فكر عبد الجواد في تلك الجرائم المرتبطة باختفاء الأطفـال ، والتـي شاعت منذ وقت قريب ، وذكرت بأغلب الجرائد ، فتجلـت ملامـح الغضب الحانق بوجهه .. قال .

- وكل الأطفال ، في الشقة ، فوق . ؟

كانت عدوى الحنق الغاضب ، قد صبغت وجه البواب . قال .

- الشقق هنا واسعة .. خمس غرف وصالة ....

تهكم عبد الجواد ..

- يأويهم .. هكذا ، لوجه الله .. ؟ ! عيال صغار ؟

تساءل البواب بخبث وغيظ ..

- وماذا يفعل بأطفال ، لغير وجه الله .. سعادتك ؟

سؤال أضمر بصدر البواب ، سؤالا آخر ، مدهشا ...

قال عبد الجواد بخبث أدركه البواب ، فانطوي علي خزي ما ..

- ربما يعلمهم مبادئ الأخلاق . !؟

ضحك البواب ، رغم اختلاج الخزى بروحه ، مجاملـــة للضـــابط ، منتبها لخاطر كريه كان يراوده ، ولم يبح به . قال :

- أخلاق ؟ عندهم أخلاق ؟! خمر وحشيش وأخلاق ؟!

- ولا بد يصعد لهم نساء ؟

قال البواب بعفوية :

- بصراحة ، لم يطلب مني .. ولا مرة ..

قال الضابط بمكر :

- وهل يطلب منك ، أنت ، النساء ؟

أقامه النفور المتذمر ، مفجرا به الخزى الذي طال كتمانه ..

- حاسب سعادتك .. إلا الإهانة .. قواد ؟ وعندي عيال في التعليم ؟

هدأه عبد الجواد بوضع يده علي كتفه ..

- لا تغضب .. أنت الذي قلت أنه لم يطلب منك نساء ...

- أنا أقصد الشغالات ، سعادتك ..

- ومن يخدمه ؟

- العيال ....

- الأكل والغسيل ؟

- الأكل من المطاعم . علي الجاهز . الغسيل في المغاسل ..

- عيالك يصعدون له ؟

- يا باشا ، كفاك إهانة .. أنا رجل عندي دم .. صعيدي ... قلت لسعادتك عيالي في مدارس .. لا يخدمون أحدا .. ولو فكر أحد السكان فطلب من أحدهم شيئا ، يكون نهاره أغبر ...

- والعيال المقيمين عنده !؟

- غلابة وارتاحوا ... لكن الغريب .. يجيء بعض أصحابه ، الخواجات ، بالعربات ، يأخذون بعض العيال .. يطلبونهم بالاسم يأخذ الواحد طفلا أو طفلين . يذهبون ، ويعودون في اليوم التالي .

- تقصد يفسحون العيال ؟!

شرد البواب قليلا ، وقال ..

- أكيد .. يفسّحون العيال ....

- أنت رجل طيب يا عم ....

- سليمان .. سعادتك

- أنت علي (نياتك) ، عايش ، يا عم سليمان ..

بلغ الشك المخزي ، والمساور ، مداه برأس سليمان .

- تقصد مغفل ؟ لكن عملي هو البوابة . حارس ...

- وداخل البوابة يا عم سليمان ! . لا يخصك ؟

صمت سليمان علي حنق بتكابر : قال عبد الجواد ..

- يفسحون العيال ؟! .. تعرف ماذا يحصل لهم ؟!

يجب أن تعرف ما يجري داخل العمارة ...

كتم سليمان خزيه . مقته . والإهانة التي شعر بها بعد زمن من الغفلـة ، أنه يستحقها . قال :

- تعني أراقب كل شقة ؟ أهذا معقول ؟

تحول غضب الضابط إلى الصرامة

- كل حراس العمارات نائمون عن المصائب التي تحدث ..

- أعمل لسعادتك شاي .. ؟

قال سليمان كمن يضع حدا لاتهامات أخري ، وإهانات ، هو في غنـي عنهـا ، فأخرج عبد الجواد نقودا ، معيـدا علاقة الـود التي بدأ بها . قال :

- علي حسابي .. الشاي والسكر ..

أزاح يد الضابط بود وامتنان ..

- عيب يا بك . نحن ناس كرماء . نحضر لك غداء لو أردت ..؟

قال الضابط ، غامرا الرجل بحالة من الود الزائد ..

- لا شكرا .. سوف أتناول غدائي في القسم ..

- قلت في بالي أنك ضابط مباحث ..

تبسم الضابط . ونهض يعدل طرف الجاكيت علي بنطلونه ، .. وكـان السكون المثقل بالحنق ، يوقظ مدارك البواب ، غير واع ليد الضـابط الممدودة إليه بالنقود . قال عبد الجواد ..

- عم سليمان ..

تنبه البواب ، معيدا يد الضابط ، مستسلما لهاتف السكون .

- لا تهينني أكثر .. سعادتك .

قال الضابط معيدا نقوده .

- مؤكد . سوف نقبض عليه ..

- فعلا .. أنا رجل غفلان .. وعبيط ...

كمن يؤنب نفسه الغافلة عن جسامة الحدث ، ونكس رأسه ...

- متي يعود ؟

ولم ينطق البواب شبه المذهول فأعاد الضابط سؤاله .. شـــارعا فـــي المغادرة ..

- عم سليمان .. متي يرجع الخواجة ؟

- ... في الخامسة ....

....

***

كان الذهول أكبر من احتمال رأس البواب ..

راح يوزعه علي زملاء العمارات المجـــاورة . بوابـــون آخـــرون ، استوعبوا الخبر بذهول أعتى . ذهول شعر به الباعة يقفـــون أحيانـــا بجوار العمارة .. خبر تطاير لدكان الكـــواء . والحـــلاق ، وكناســـي الشارع والخادمات ، وعمال المصاعد ، والســـكان المقيميـــن بنفـــس العمارة ..

....

وقبل الساعة الخامسة . سمع انفجار مروع بالطابق الثـــالث ، حيــث اندلعت نيران مصحوبة بدخان كثيف ، من نوافذ الشقة التـــي كــانت خالية ..

....

يقال ، في الشارع ، أن الخواجة ، عندما أحس بالذهول الذي تواتـــر بجو الشارع ، المعلق بالعيون ، وشاهد الحريـــق المتعمــد ، تقــهقر بعربته نحو شارع فؤاد ، هاربا ...

....

ويقال ، أن البواب دفعه الذهول الأعمى لفتح صمامات الغاز بالشـقة ، وأحرقها .. ويقال أن السكان المهذبون ، عندمـــا تفــاقمت دهشــتهم التقززية ، أحرقوا الشقة : وتناقلت الأقاويل ، حتـــى مســت رجــل الشارع ..

ولا أحد ، بعد ، يعرف الحقيقة ..

الحقيقة ، فقط ، التي تيقن منها الضابط ، ورجال الأمن الذين كـــانوا يراقبون العمارة من بعيد ، أن الخواجة ، حين فر هاربا ، توجه إلـــى السفارة . وإن الأطفال الذين كان يأويهم ، عادوا ، مرة أخري ، من

جديد ، إلي الشوارع محملين بالوبـــاء .. أطفـــال ، بـــالأقل ، كـــانوا يتسمون بالبراءة ..

....

علي الرغم من كل ذلك . وإدراج الحادث ضد مجـــهول . وانتشـــار العيال ، حاملي الوباء ، وسياحتهم بأرجاء المدينة ، وإمكانية انتقـــال العدوى منهم ، باقتنائهم اللذة التي ستؤرق أبدانهم .

كان يمس مشاعر عبد الجواد ارتياح غامر ، خفي ، لم يلاحظه أحـــد من رؤسائه ، الذين حثوه ، بإعجاب ، لمدي أهمية متابعة البحث عـــن القاتل ....

٣ الفئران

كعهده ، كل يوم ، منذ تولي البحث في فـك طلاسـم تلـك القضيـة المنفرة ، المتمثلة دائما بأخيلته بمشهد المؤخرة والخـــازوق . يخلـو لذاته ، يعاند القلق المهيمن ، أحيانا ، والتوجس المهاب مـن إمكانيـة نجاحه ، في التوصل ــ كضابط شاب ــ لمعرفـة القـاتل الطليـق ، الخارج عن نطاق البحث ..

يحاول الحفاظ علي نفسه من السقوط في هوة الشك المخجل ، إنســان أخلص لعمله ، يبحث بجدية في حقيقة غائبة ، متوارية وسط مدينـة واسعة ، وبين شرنمة من بشر ليسوا أسوياء ، لأول مرة يتعامل مـع قضية تخصهم . غرباء عنه ، ويقيمون معه ، علي أرض واحـدة . فقط كان يسمع عنهم بأيام الدراسة ، أنـهم موجـودون ، بـالفعل . حكاياتهم تتناقلها أفواه الأصدقاء بالطرافة والسخرية ، وألفاظ البذاءة ، في الشوارع والأسواق ، ويخلعون عليهم أسماء شاذة مخجلة ..

فقط ، كان يسمع ، ويتخيل أشكالهم كآدميين ، كانوا هنا ، ذات وقـت ، أو كانوا هناك ، وصاروا مجرد حكايات بأدمغة الذين عرفوهم عـن قرب . ولم يفكر إن كانوا ما زالوا قائمين أو انتهوا ، بعيـدون عن

مدارك إحساسه .. ربما كانوا يمرون بخاطره مرور البرق الخـــاطف كلما سمع بقوم لوط .. أما زالت سلالتهم قائمة ، تتوالـــد ، وتمـــارس عاداتها ؟

***

بعض الذين استطاع جمعهم من (الأجندة) ، أخرجتهم النيابـــة لعـــدم ثبوت الأدلة ..

بعض آخر ، تجدد حبسه علي ذمة قضايا أخري . تزويـــر . تـــهرب من ضرائب . القيادة بدون رخص ..

والقاتل ما زال مجهولا ، فبعـــد فحـــص مكـــان الجريمـــة ، ورفـــع البصمات الهلامية ، والممحو بعضها ، خاصة فوق الخازوق ، . لـــم يستدل علي دليل واحد ، كأن القاتل كان يلبس قفازا مـــن المشـــمع ، وكل ما كان علي الحوائط من دماء ، هي للقتيل ، وبصماته ...

***

دائما ما تأخذ رأسه صفات الأجندة . أسماء معلقة فـــوق الســـطور ، وأخري ملقاة علي الحواف ، وأرقام متعامدة ، متاهـــة ، ســـراديب ، منطقة عشوائية ، أزقة ، وحارات ، حين يحاول التغلغل في مســـالكها يتعثر .. هنـــا أرقام مشطـــوب عليها بقلمــــه ، ومعرفة النيابة .

أرقام حملت سمات أصحابها طوال فترة التحقيـــق ، ثــم تــوارت ، تبخرت من رأسه بالحبس ، أو عدم إثبات أدلة ، أو بالإفراج .. أرقـام أخري ، علي بعض الصفحات الأولي ، تركت ، مقوسة بقلم الضـــابط الأحمر ، علامة علي عدم التوصل لمعرفة أصحابها .

محاولات الاتصال بها ، كانت غير مجدية ، فعنـــد الطلــب ، كــانت تجيب أصوات عاملات الهواتف المسجلة .. الرقم المطلـــوب غــير موجود بالخدمة ، أو خارج الخدمة ، مما يعني تغير الرقم ، أو بيعـــه ، أو عدم السداد ..

من أجل تلك المحاولات ، الفشل المحبط . كان عليه لإثبـــات ذاتـــه ، ونفي إحراجه المخجل ، ولتبدل شعور اليأس المراوغ ، أن يحـــاول ، بحثا ، عن كل الممكنات المتاحة ..

***

انبعث رنين أحد الهواتف بالجانب الآخر . فانتظر .. أعاد الطلـــب .. ســـدي .. طلب رقما آخر ، يجاور الأول .. اســـم صاحبه " عــادل " .. انطلق هناك الرنين ..

كان يدرك أن الليل الذي يطلب فيه ، قد تجاوز معقولية محادثة أحد ، مع الرغبة الملحة ، والمقرونة بتوقع عدم استجابة الجانب الآخر .

ربما المطلوب ، المدعو عادل ، يكون نائما ، أو خارج بيته ، لكـــن الرنين توقف بالجانب الآخر .. ورفعت السماعة ..

امتن عبد الجواد قليلا .. كان صوتا بعيدا لامرأة . صوت تيقظ تـــوا من عمق نوم . خشنا ، وجادا ، ومزمجرا . يبادر سائلا ..

- من .... ؟

صوته الممتن سأل .

- هذا هو رقم ...... ؟

ردت بحدة واقتضاب ..

- هو .. ماذا تريد .. ؟

- التليفون .. باسم عادل ؟

صدمه ردها القاطع المتذمر ..

- باسم زفت ... ماذا تريد ؟

- .. صديق ....

تجلي الغضب بصوتها النهار ..

- صديق من بالضبط ... ؟

محا التلعثم شعوره الممتن ..

- يعني .. معرفة .. لصاحب الرقم ...

- الله يلعن صاحب الرقم .. ويلعن كل معارفه ..

كمن تود قفل الخط بردها السريع المبتور . فصمت . قالت حانقة

- أنت منهم .... ؟!

فكر بقفل الخط ، بدوره ، مدهوشا .. لكنه رد بسرعة . وتساءل

- احفظي لسانك يا هانم . واعرفي من يكلمك ..

بدا تهكمها ، ورغبتها في التمسك بالخط مفتوحا لإهانته أكثر ..

- مادمت صديقه ، وتعترف لا بد تعرف أنك منهم ..

كادت تنهي المكالمة ، وهو يحاول التواصل ..

- أرجو توضيح كلامك يا هانم . وكفي عن بذاءة لسانك ...

قالت بتهكم أسيان ..

- أم تكون صديق ابنه ؟ أو ابنته ؟ الأمور . تشابكت .. (قطيعة) .. لم أعد أميز بين الطيب والقذر .. وما دمت صديق صاحب التليفون .. مؤكد . ستكون مثله ...

إهانة متعمدة ، وسافرة ، توجه لشخصه ، ذاته تتهمه ، ضمنيا ، بالعهر ، العري ، مع احتمالات لشتمه ، والبصق عليه ، قال بجدية ضجر مفرط ..

- احترمي نفسك .. من فضلك .. ماذا تقصدين ؟

تلمظت ، مفاقمة من ضجره . هزّ جديته .. رجولته ..

- أقصد صاحبك المعفن . صاحب التليفون . الذي ذكرت اسمه ...

لسانها الغاضب يفح ، ينفث عن بذاءات أخري ، لاذعة ، حدّ هـو من تدفقه المهين ، غير المحتمل .. بقوله :

- أرجوك . يكفي هذا .. قلة ذوق .. !

منتويا الكف عن سماعها بوضع السماعة ، ومغادرة المكتب ، شـاعرا برغبتها في التنفيث عما تحمل من هموم خانقة .

- ولماذا تسأل عن واحد لا تعرفه ؟ لو كنت محترما ما سألت عنـه ! .. ألا تعرف ما حدث له ؟ الملعون !؟

رد باهتمام زائد ..

- أنا لا أعرف ما حدث له ..

- كيف تكون صديقه ولا تعرف ؟ وأنتم تعرفون بعضكم بعضـا ؟

أعتق عبد الجواد نفسه من شعور الأذى والخزى بصيحة برئ ..

- أنا لا صديقه ولا أعرفه ، ولا تهمني معرفته . أردت عنوانه فقط

كان صوتها يواري الحزن .

- ولماذا تريد العنوان . ماذا يهمك منه ؟ لم نعد نريد أحـدا .. ولا أحد يزورنا .. أصبحنا علامة مقرفة بوسط الحي كله ..

تجلت بالحلق غصة الموشك على البكاء ..

- أصبحنا ملوثين . مهانين . الناس يشيرون لبيتنا بالوقاحة .. الرجال يسببون لنا العار .. كل الرجال متشابهون .. لو كنت تريده . تريد عنوانه .. اذهب إليه في المكان القذر الذي لمه .. سوف تجده هناك مشبوحا كالبهيمة . ينهش في لحمه اللصوص والقتلة ، وتجار المخدرات .

غضبها المطلوق يمازجه الأسى .. قال ..

- لو سمحت لي .. أريد التحدث معك ...

- مع الأسف .. لا أريد التحدث مع أي رجل . يكفي ما نحن فيه .. شاطرها الأسى .

- إن لم تعطني العنوان ، سأجده بطريقتي ...

- تجده ، أولا تجده .. لا يهمني .. كلكم خونة .. أنذال .. طبيعتكم الكذب .. سأقول لك أين تجده . الملعون . يقضي مدة عقوبة بالسجن . أرجو ألا يخرج منه . يموت فيه . لأنه لو خرج سيحاول الاتصال بعياله ، وهم لا يريدونه .. أنا التي أبلغت عنه .. أدخلته السجن ، ولو خرج ، واقترب سأقتله . وأفرج الخلق — مرة ثانية — عليه ....

وهبدت السماعة علي الجهاز ...

ناوشت دماغه الوساوس ، متوقعا ضلوع السجين في الجريمة . المرأة لم تكشف عن سبب دخوله السجن .. أيكون هو القاتل ؟ شيئ من مسرة كامنة تطفو علي تصرفات الضابط ..

لا بد رجال مباحث القسم الواقع به رقم الهاتف ، قد قبضوا عليه .. شعور بارتياح مراوغ انتابه .. راغبا ، لا يزال ، في رؤية ذلك القاتل . الإمساك به .. التحدث معه . معرفة الدافع الغريب الذي جعله يحشر خازوقا بمؤخرة القتيل ...

***

خمرية الوجه .. فارعة القامة ، ممشوقة .. ترفل في شبابها الأربعيني .. بتحد واقفة حياله . ضابطا كضيف كان ، متعنت ، وثقيل ، متثاقل . اقتحم الليل بادئ التعملق ، والبيت ..

ارتاح علي أحد مقاعد الفوتيه الفاخر بصالة واسعة فخمة ، وبادرته بصوت أكثر وقاراً من بذاءات الهاتف السابقة :

ــ حضرتك من رجال المباحث .. ؟

ضم ساقيه . افتعل التأقلم مع المكان ، مبعدا عن رأسه كونه واحدا من أمثاله ، كما خمنت هي من قبل .. قالت :

- كيف عرفت العنوان .. ؟

كان يطالع الصالة الفاخرة ..

- كيف عرفت أنت ، أنني من رجال المباحث ؟

- إظهار رقم الطالب ، أظهر الرقم الذي تتحدث منه . بعد سؤال ابني ، عرفت . كنت تتحدث من القسم . فلا تؤاخذني بما قلت .. عرفت ذلك بعد عودة ابني مساء من الخارج ...

- أعرف أني أثقلت عليكم .. لكن ظروف عملي .. اجلسي لو سمحت . فأنا أريد معرفة الحكاية ..

كأن مس ورما بالجسد ، ورما أفرز قيحه نفورا ، تجهما ، استجمعت وقارها الهارب .. وقالت :

- الملعون .. كيف أحكي .. ؟ تصور الملعون .. ماذا فعل ؟ كان زوجي .. كنت أشك في أفعاله معي .. أفعال رجل مراهق ! صاحب الشعر الأبيض ، والمظهر ، المهابة ! موظف درجة أولي .. الملعون .. كان بإمكانه الوصول لدرجة مدير عام .. الخائن .. أبو العيال ؟! اكتشف أنه .. ماذا أقول ؟ .. يصاحب الأقذار مثله . لم أكتشف خياناته إلا مؤخرا .. طوال حياتي معه .. حياتي الضائعة هباء في الفضائح .. كنت أتصور أنني أحبه ،

ضاعت بجانب رجل بذئ . كنت دائما إلى جواره . ألبــي لـه كـل حاجاته .. كل ما كان يحبه أفعله بصدق واعتناء .. تصور ؟ الملعـون ؟! ، ومع من كان يخونني ؟! مع جربوع مثله .. رقيع مثله .. شـاب قذر ؟

مع رجل مثله .. في شقتنا هذه .. علي هذه الكنبة .. بغرفة الضيـوف .. شاب كان يأتي إليه دائما .. يقول أنه أحد مرؤسيه . وكنت بنفسـي ، أغلق عليهما باب الغرفة بعد أن أعد لهما الشاي ، ليـأخذا وقتـهما دون إزعاج . تصور ؟

يغيبان في الداخل ، وفي بالي أنهما يتحدثان في العمل ..؟!

ذات يوم .. عدت من عملي مبكرا .. أعمل في شركة تأمين .. هـو يعمل بشركة أخري .. يومها عدت بتعب مفاجئ أصـابني .. كنـت أعرف أنه لا يزال في عمله .. فتحت الباب ودخلت ، وجلست هنـا آخذ نفسي .. سمعت حركة بغرفة الضيوف ، مع همس .

كان ابني وقتها بالكلية . ظننت أنه جاء مبكرا قبل الظهر ومعه أحـد أصحابه . أو عادت ابنتي من الكلية ومعـها إحـدى زميلاتـها ... الملعون ...

نهضت مقتربة. كان الباب مواربا .. لو كان مقفلا .. لو كان أغلقـــه .. كالعادة .. ما كنت رأيت .. ما كنت عرفت . كنت سأقول في بـــالي ، مثل كل مرة ، صديقان يتحدثان ، وأظل علي غفلتي وشكي ..

كان مطمئنا لخلو البيت ، لدرجة ترك البـــاب مواربـــا .. اطمئنـــان الهيمان .. أنساه أن يغلق الباب . اطمئنان تخلص فيـــه مـــن ثيابـــه . ليبدو عريه .. عريه البغيض ..

كان التوتر يعلو بصوتها ، يرجفها . المشهد المروع يعاد حدوثـه الآن ، أمام بصرها ..

عار .. منكب علي الشاب المستلقي فوق الكنبة ببطنه ، كعاهرة !؟

لم أكن أتخيل حدوث ذلك مع رجل .. ! كلب وكلبة ملتحمان .. أكان يفعل معي بعد ذلك ؟ ! كيف أغفر لنفسي استقباله طوال ســـنين .. ؟ متشابكان . ولم ينفصلا ، علي الرغم من إزاحة الباب ، أو لمفاجئـــة دخولي . كأنهما نسيا كل ما حولهما لحظة دخولي .. كلبان في شـــقتي .. علي كنبة ، ومكان كنت أحب الاختلاء به للصلاة .. ؟!

أذهلتني الرؤية ، والشك الذي لم أكن أدرك أنه ينتـــهي علـــي هـــذا المنظر الفظيع .. البشاعة .. كنت أشك ، أنـــه يغـــازل النســـاء ، أو البنات لم أتوقع شكا من هذا النوع المريع .. كنت أصرخ .. أصـــرخ .. أصرخ ..

كان وجهها المحتقن بصراخ مكتوم ينم عن ذهول مفرط ..استطردت:

جريت بصراخي .. فتحت الباب بغثياني .. أستصرخ الناس .. الناس ليشاركوني الصراخ .. يقاسموني ثقل المصيبة .. لم أحتمل وحدي المفاجئة .. ليأتي الناس ، ليروا ما رأيت ، حقيقة هي أم كابوس ؟! جاء الجيران مفزوعين .. مندفعين بسرعة لإنقاذ ما تخيلوه .. ربما تخيلوا حريقا شب ، أو موتا وقع فجأة . لكنهم شاهدوا ما هو أفظع .. شاب جربوع . كلبة مرعوبة . فأر يحاول الهرب ، مذعورا ، يعدل هدومه . يجري علي الدرج شبه عار .. أمسك به البعض .. ضربوه .. وقدر علي الإفلات ، الهرب .

تزاحم الجيران هنا ، ليروا الكلب الآخر .. الملعون الآخر المرتبك يحاول ستر عريه .. يعالج خزيه بصمت مشدوه .. أمام الناس .. هدوء المقت يغزوها ، يخمد هيجانها قليلا ..

ـ نعم .. جعلت الناس يتفرجون عليه وهو قابع في الخزي .. هل كان يتوقع سكوتي . إخفاء الداهية التي حلت عليّ ؟! .. أتفرج ؟! . وساخة أجراها بدمي ، وجسدي ، وأسكت ؟

.. تجلي انهيارها العصبي باهتزاز بدن موشك علي التساقط

ـ تخيل منظر الولد والبنت حين عادا .. وجودوهما مفزوعين بيـــن الناس . ! وسط أفواه تمصمص الإشفاق بحقد مذهول .. دعارة رجال .. أفواه ، أكيد ، كانت تبصق عليه .. علينا .. كنت أشك ، أيضـــا ، بهؤلاء الرجال ، من يعرف ؟

تخيل منظر بنت بكلية التجارة .. وولد في كلية الطب .. ؟! يشـــاهدان أباهما ، مهانا ، خزيانا . مكوما كخرقة . ينتظر مصيره المجهول .

.. الناس الذين طلبوا بوليس النجدة . صاروا يتحدثـــون عنـــي الآن بوقاحة ، بأنني كنت أعرف .. ولو كنت أعرف ، مـــا عشـــت معـــه لحظة واحدة .. كانوا يتساءلون ، كيف كان يعاشرني ؟ ! هو قـــذر ، لا بد أن أكون قذرة مثله ـ تصور ؟! آخرون قالوا ، أنني لم أنجـــب منه الأبناء ، وأنني أنجبتهم بطرق أخري ..

الكلام يتكاثر ، والتأويلات أكثر . كل واحـــد يقـــول مـــا يروقـــه .. الجيران الذين طلبوا البوليس هم الذين شهدوا عليه . وفكر بعضــــهم في طردنا من البيت ....

- متي دخل السجن ؟

سأل الضابط بعد شك عربد بروحه ..

- منذ شهرين.. شهرين ، وعدة أيام ..

قالت ، وانزوت تبكي .. وارتاب هو ، وقال :

- ولم تذهبي لذلك الشاب بعد تلك الواقعة ؟

- ماذا أفعل لكلب ؟ هرب .. ماذا يهمني منه الآن ؟

قالت . واستكانت للدموع ..

شطب من رأسه ذلك المشتبه فيه . شطب اسمه ورقـــم هاتفـــه مـــن الأجندة ، فحادثة القتل وقعت منذ أيام فقط ..

استجمعت شتات رأسها ، وابتلعت ما تبقي من دموع . قالت :

- تبحثون عن ذلك الملعون . هل هرب ؟

نهض . كاتما ذلك الخزي البعيد الذي بعثه شعوره بالخجل ..

- لا . نبحث عن قاتل آخر ، مثله ..

- ليتكم شنقتموه .. الملعون ..

٤ ورع الشيخ صالح

برأس حائر ، فاقد الرغبة . تابع عبـــد الجــواد أرقــام الــهواتف ، متجاورة ، متباعدة ، ومقوسة بقلمه للأهميـــة والتذكــر .. أصدقــاء الانحناء والمخاتلة ، كثـــيرون ، متجـــاورون ، يزحمـــون الصفحـــة الواحدة ، بعضهم فوق بعض ، حسب الأقدمية ، والأهمية والنفـــوذ ، إن كانوا أدنياء ، أو من الأكابر ..

[مَن من كل هؤلاء القاتل ..؟]

استوقفه اسم غريب ، شد انتباهه .. الشيخ صالح .. !! . ورقم هاتفـــه .. مكانة تعلو على الشك ..

ألجمه الصمت المدهش ، وتصلب الأصابع ، التأمل الملغـــوم بشـــتى التخمينات ، الاحتمالات المتوقعة ، والمبعدة برغبة عدم التصديق ..

أ صديق هو للقتيل . ؟

فكر ، محاولا نفي الاسم عن منطقة إدراكه المنذعر .. لكن الاســـم ، هنا ، موجود ، واضح وضوح الدهشة الآخذة بعنقه ، بوجهه المتجمد

•••

بالرقم ، توصل عبد الجواد لعنوان الهاتف .. مسجدا كان . !!
يؤمه الشيخ صالح . مسجد مشهور بضاحية من ضواحي المدينـــة ، ملحق به مستوصف ودار مناسبات . مزحوم علي الدوام بـالمصلين ، الذين تجاوره بيوتهم ، والذين يأتون أسبوعيا بسياراتهم الفاخرة مـن المناطق البعيدة ، شوقا لسماع خطبه .. أيستطيع هذا الرجل القتـل . ؟ .. كان بالأجندة لواء متقاعد .. بعد التحري عنه ، علموا أنـه مـات منذ مدة .. واسم لطبيب مخضرم عجوز ، عندما تحروا عنه ــ أيضـا ــ تبينوا أنه هاجر لبلد آخر .. لكن ذلك الشيخ .! . أيقتـل ويصعـد المنبر ويلقي خطبة الجمعة ؟ يخطب أمام حشود سرعان ما تتحـول لمشاعر جياشة يوحدها الخشوع ، و .. يكون إمامهم في الصلاة ؟!
قاعدون بصمت وإنصات موجهون إليه أبصار الضراعـة والزهـو والورع ، سابحون في صوته القـوي المـدوي بمكـبرات الصـوت الموزعة بأعلى المسجد ومجلجلا بأرجاء الميـدان ، جائبـا الفضـاء البالغ عنان السماء يحملهم برفق لجنات مفتحة الأبواب لسكب الرحمـة والمغفرة ..
صوت شجي ، ملئ بالأسى والشجن ، ينفي من رؤوسهم الدنيا ومـا فيها . يحلق بهم كملائكـة يرتقون بأرواحهم وراء بدنه القوي الرافل

في جلباب أبيض يشع نورا ، أضفي علي الوجه سماحة عطوفة مع حزن شفيف ..

واقفا بطوله الفارع ، منفعلا بموضوع الخطبة ..

والضابط عبد الجواد ، يقرفص ، كمتأهب ، بآخر الصفوف ، إلى جوار الباب ، مستمعا برأس تضاربت به الأقوال والشكوك ...

أخوة الإيمان .. هيا بنا نعايش العهد النبوي العاطر .. التاريخ المليء بالجهاد والصبر والموعظة **" أيها الواعظ من أدخلك تلك الأجندة ؟ "**

ـ نصاحب رجالا آمنوا بالله ، تهذبوا علي هدي رسوله ، نرافق خلفاء الله علي أرضه **" كيف ومتي رافقت ذلك القتيل ؟ "**

تلك الأرض التي لم تتغير أو تتبدل حتى يومنا هذا **" كيف أمكنك أنت تغيير نفسك ؟ . ودخلت الأجندة ؟ "** . ولكن نحن الذين تغيرنا .

"إلي الأسوأ أيها الواعظ " نتعرف علي رجال اشتروا الدين بالدنيا . وهبوا كل غال وثمين في سبيل نصرة الحق والدين ..

" أحقا أنت قاتل ؟ " . رجال لو استطاع خلفاؤهم ، نحن ، نحن التمسك بعهد الله ورسوله الكريم **" لو تمسكوا أيها الواعظ !؟ "** لامتلكوا زمام الأرض ، ولغيروا وجه العالم .. رجال لا يخافون لومة لائم في حق الله ..

" **سوف تخاف ، ويرعبك وجـــودي أيــها الواعــظ** ". نصــروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم .. لو اتبعناهم . " **كيف اتبعت أنت القتيـل ؟!** " لارتقت شعوب الأرض بالخير والصلاح .. لو اتبعناهم لاستقر حالنــا المؤسف " **حتما ، المؤسف !** " وزالت الذئاب التي ترعي في الأرض " **هل أنت من الذئاب ؟!** " ولاندحرت الشياطين في معاقلها

"**هل أنا شيطان يجب أن يسكت وأنتم تعرفون جيدا من هم الذئــاب .. أنئاب الشر .** " أرباب الزيف والخداع والخطيئة .. مصاصو الدمــاء .. الذين يتوهمون أنهم يملكون الأرض .. الذئاب تملــك الأرض !!؟ أهل الفتن والوقيعة ..؟!

" **من أوصلك لأرضه المهينة أيها الواعظ ؟**" صانعوا المكائد لتفريـق المؤمنين ، يملكون الأرض ؟! " **حيرتني أيها الواعظ** "

لنأخذ الصحابي الجليل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه " **كيف قتـل عمر ؟** " قدوة .. نبراسا يضئ لنا الطريق ..

جلس عبد الجواد علي الأرض ، مأخوذا بالدهشة والاستماع .

عمر ، كان يملك المال والجاه والســلطان ، ملــذات الدنيــا . عمــر القارئ ، الكاتب ، المتعلم . ذواقة الشعر ، عاشق الدنيا ، قبل إســلامه .. ماذا فعل بعد توليه الخلافة ؟ .

كان يسهر علي مصالح شعبه .. انظروا لرجـــال الزمـــن العظيـــم ، الأقوياء ، السمحاء .

ذات نهار ، قال له عثمان بن عفان ، وهما رفقاء ســـفر وطريـــق ، وتجارة بعد أن نزلا بالمصلي :

— هل لك أن تحرس الناس ليلا يا عمر ؟

ولأنه من أفضل معادن الرجال ، قال " نعم " ؛ فأقاما الليل ، وصليـــا معا ما شاء لهما .. حتى سمع عمر بكاء طفل بأحد البيوت ؛ فقـــام ، وتوجه إليه ، وسأل أم العيال عما يبكيهم ، فقالت له : الجوع : فذهـب . وجاءهم بالطعام علي كتفه ..

عمر الذي دعا ثلاث دعوات عندما تولي الخلافة ، قال : اللهم إنـــي ضعيف فقوّني .. اللهم إني غليظ فليّني .. اللهم إني بخيل فســـخنّي . ثم قال : لو علمت أن أحدا أقوي مني علي هذا الأمر ؛ لكان ضـــرب العنق أحب إليّ من هذه الولاية .

هذا هو الخليفة الوالي ، الصادق .. الذي بلغه أن الناس خافوا منـــه . هابوا شدته ، حتى أنهم تركوا مجالسهم بالأفنية ، رعبا منه .. فجمـــع الناس بالجامع الكبير لصلاة جامعة وقال فيـــهم :" بلغنـــي أن النـــاس هابوا شدتي وخافوا غلظتي . ثم إنني قد وليت أموركم أيها الناس .

فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها ، إنما تكـون علـي أهـل الظلم والتعدي علي المسلمين .. أما أهل السلام ، والدين ، والقصـد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحدا يظلم أحـدا .. أو يتعدى عليه ، حتى أضع خده علي الأرض ، وأضع قدمي علي الخـد الآخر ، حتى يذعن للحق ، واني بعد شدتي تلك أضع خـدي لأهـل العفاف وأهل الكفاف .

عمر القائد ، الذي كان جاهليا ، كافرا ، شـاربا للخمـر ، صديقـا لرجال قريش بدار الندوة ، عمر القوي ، كيف تحول إلي الإسـلام ؟ كافرا بآلهة أهله الذين هم عليها قائمون ؟! كيف تأثر ببلاغة القـرآن ، بعد أن سمع بعضه من بعض الذين أسلموا ، فاهتزت قوته ..

فحمل سيفه ، ذات يوم ، ومشي ، فلقيه رجل من بني زهرة فقال لـه عمر " أريد أن أقتل محمدا " فقال له الرجل "وكيف تأمن علي نفسـك من هاشم وبني زهرة إن قتلت محمدا ؟" فاغتاظ عمر ، وحمل علـي الرجل ، وقال له " ما أراك إلا تركت آلهتنا ، واتبعت ديـن محمـد " فقال له الرجل " هل أدلك علي العجب يا عمر ؟ إن أختك وزوجـها ، قد تركا دينك الذي أنت عليه " فمشي عمر ثائرا ، متوجها لبيت أختـه وزوجها ..تشاجر عمر وضرب أخته وزوجها ضربـا مبرحـا لمـا يحدث من خلف ظهره .

وكان عندهما زائر يقرئهما القرآن ، وقد تواري الزائر عندمـــا علــم بمقدم عمر .. وقد سمع عمر حديث الزائر ، منه ســـورة " طــه ".. ضربهما ليعودا إلي ما كانا عليه من دين آبائهم لكن الإسلام كان قــد دخل قلبيهما ، وتمكن منهما ، ولم يتنازلا عن دينهما الجديد ..

ربّع عبد الجواد ساقيه ، مستقرا علي الأرض ، رغم وساوس الـوأس المناوشة " **أيمكن أن تلوث نفسك بالدم الفاسد أيها الشيخ ؟** " وذهـب عمر إلي النبي ليقتله ، وكان بالمسجد ، " دلوني علي محمد " فســمع "خباب " الصحابي الفضيل ، قول عمر ، فخرج عليــه يقــول فرحــا "أبشر يا عمر ؛ فدعوة رسول الله لك يوم الخميس هي ، اللــهم أعــز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بعمر بن هشام "

فانطلق عمر إلي حيث مسجد الرسول ، فوجد علــي بابــه" حمــزة" الشجاع الصنديد ، و"طلحة " وناسا آخرين من أصحاب النبي الداعيـن إلي الحق والإسلام .. كانوا صناديد كفر ، وتحولوا لنصرة دين الحـق الجديد .. فأسلم عمر ، ومعه رجاله الأشداء ..

مسترخيا كان عبد الجواد ، مدليا ذراعيه علي الأرض .

انظروا إلي الرجال الأولين ، ماذا فعلوا لنصرة دين الحق .. ! ..

وانظروا ماذا فعلتم أنتم ، نحن .. ؟ كيف تقابلون الفتـــن ، الوقيعـــة ، المكائد التى تحاك حولنا ؟ إن الذي قتل عمرا هـــو الحقـــد والمكيـــدة والشر الذين تمثلوا في القاتل " **من القاتل أيها الشيخ ؟** " أبو لؤلؤة تفاعلت مشاعر عبد الجواد مع صوت الخطيب الثائر .

كان عمر قائما بالناس يصلي .. حين اخترق أبو لؤلـــؤة الصفـــوف . وبلغ مكان عمر الخاشع ... المجرم ، فعل فعلته الشنعاء . قتل عمـــر بخنجر ذي حدين ، و(مشرشر) لينـــال مـــن الرجـــل .. فعـــل وراح يركض يعدو بين صفوف المصلين ، يبغي الهرب ، وحين تصدي لـــه بعض المصلين بأبدانهم طعن منهم أكثر من عشرة رجال . ولما وجـــد المجرم نفسه محاصرا من كل جانب ، وقد ألقي عليه أحد المصليـــــن رداءه ، لم يجد طريقا للهرب إلا قتل نفسه . طعن نفســـه ليمـــوت ..

"**أيها الشيخ .. كيف ألقي القبض عليك .. ؟** "

أين رجال اليوم من رجال الأمس ؟ .. لماذا قتل أبو لؤلـــؤة نفســـه ؟ لأنه كان مأجورا ، وخائفا من الذين استأجروه ، والذين ــ حتمـــا ــ سيقتلونه .. قتل نفسه لأنه مقتول بكل الأحوال ، وخوفا من الســـقوط تحت طائلة الأسئلة والاستجوابات العنيفة والضرب الشديد مـــن قبـــل أهل الإســـلام حتى يعترف علي من دفعـــوه ليرتكـــب جريمة القتل

الجماعي البشع .. ومن هم الذين دفعوه ؟ من هم الخونـــة ، القتلـــة ؟ الذئاب ؟ كلنا نعرفهم .. اليهود .. " **أتعرف أنني ضابط جئت لأقبـــض عليك ، لذلك تطيل الخطبة ؟** "

هواجس ملولة شجبت علي روحه ، فتجلي بصبر مراوغ ، مع خـــدر كالتنميل يسري بساقيه ، شاعرا بأن جلوس المؤخـــرة المجـــاورين ، المتأخرين في الحضور يتململون مثله . بعضهم بدوا ــ من رؤوســهم المدلاة ــ كالغفاة .

لكن الأماميين القريبين من المنبر ، كانوا أكـــثر رســوخا ، ويقظـــة وانتباها ، يستقون العلم من خطيب رصين ، يمصمصون لـــه الشـــفاه من شدة الإعجاب والخشوع .

كان عبد الجواد تسحب مشاعره رويدا رويدا ليندمج ، نافيا عن رأســه ، ولو مؤقتا ، مهمته ، صفة الشرطي الذي يتوجب عليه أداء عملـــه ، فراح يصغي بإعجاب داخلي ، شبه منوم ، مخدرا . لكنه استفاق علي إقامة الصلاة ..

•••

وقف عبد الجواد قرب باب الجامع ، بزاوية يستطيع منها رؤية كـــل الذين يظهرون ، تباعا ، علي الدهليز ، يتخطون الحـــاجز الخشـبي المنخفض ، ينحنون ، يلبسون أحذيتهم .. يرقب ظهور الشيخ الـــذي تأخر بالداخل ، تأخر قليل ، لكنه أثار هواجـــس الارتيـــاب ، ولـــوم النفس . فإمكانية هروب الشيخ ، من باب آخـــر بالجـــامع ، قائمـــة ، وممكنة . باب الميضأة الخلفي ، ربما ، لائما ارتيابه الذي أودي بـــه لشعوره البغيض ، لموقفه المهني الذي أرغمه علي الوقـــوف هكـذا منتظرا ، يراقب بجانب جامع رجلا يتأرجح بين الإدانة والبراءة .

وليطوف برأسه ، المرتاب ، شكل والده ، العامل البسيط ، خروجـــه الآن ، من المسجد القريب من بيتهم القديم ، يتمهل ماشـــيا ، بثوبـــه الأبيض ، وخف قدمه .. مطمئن الوجه ، مثل تلك الوجـــوه العـــابرة التى تتري أمامه ، مغادرة ، تمشي علي مـــهل مطمئـــن .. قفـــاطين بيضاء وأغطية رؤوس . يتناثرون ، ويغيبون في الأزقة والشـــوارع الموزعة حول الميدان الفسيح القائم به الجـــامع ، بعضـــهم يركـب سيارات ويمضون ، متوقعا ، مع ذلك ، رؤية أبيه خارجا مـــن هـــذا الجامع ، ربما ألقت به الصدف ليصلي الجمعة هنا ، ولـــيري ولـــده الضابط واقفا ، ينتظر خروج الإمام ليقبض عليه ، يسوقه إلـــي قســـم التحقيقات والتحري ..

وربما يكون أحد الحماة الذين ما زالوا معه بالداخل ، ان كان بـــالفعل بالداخل ولم يهرب ! لكن والده لا يملك منعه من أداء واجبه ...

نحي عن رأسه التوقعات شبه الملهمة ، المبهمة ، والتي تحد من تدفق التحفز. أبوه لا يمكنه قطع مشوار من محرم بك ليصلي هنا .

حمد لنفسه مجيئه وحده ، دون عسكر ، أو مخبرين ، منعا لانتشـــار أية شبهة سوء يمكن أن تلحق برجل ربما يكون بريئا ..

الوقت المعلق بالدقائق يزحف بطيئا علي أوتار الأعصاب ، ضاغطـــا علي هواجس الارتياب .. لن يتباهى مثلما يفعل الضباط الآخـــرون ، بأنه قبض علي شيخ أمام الجامع المشهور ، سيحاول كتمان الأمـــر ، وسرا ، بينه وبين الرجل ، وسيشاركه إحساس الدهشة و الاســتغراب عند لحظة القبض ! "كيف ستكون طريقة القبض ؟ " أفـــي البيــت ، بوسط عائلته ؟ يقينا متزوج هو وعنده أولاد ..

أيقبض عليه بالطريق ، لدي خروجه ؟ مؤكد سيخرج معـــه رجـــال آخرون يصاحبونه الطريق .. أم يوحي إليه بأنه مصلّ جديـــد أحـــب خطبه ، ثم يحذره ، سرا ، بالمشي معه في هـــدوء ، ودون ضجـــة ، واهما اياه بأهمية استجوابه في قسم التحقيقات ؟

كان باب الجامع يخلو من المغادرين ، ويبدو وحيدا ، بعد أن أغلـــق الخادم إحدى ضلفتيه ، ولم يخرج الرجل ..

توقع أن يغلق الخادم الضلفة الأخرى .. ناوش الدماغ قلــق .. ربمــا خرج من الباب مع بعض أصحابه ، ولم يره ..

لكن الرجل ظهر ، قطع الشك ، خرج يتوسط بعض الرجال ، كبـــار السن ، يحيطون به . يرفلون في الوقار والهدوء ..

مازج عبد الجواد ارتياح طمأن قلبه ، أزاح شكوكه الممضــــة التـــي أكرهته علي التفكير السيئ بالرجل ..

أيذهب إليه الآن ، ويضع يده علي كتفه ، ؟ تحت إبطه ؟ أيتركه يـأخذ وقته مع صحبة الرجال المتمهلين ، تمهلا أرغم عبد الجـــواد علـــي إبطاء الخطو المتابع ، مطمئن البال لوجـــود الرجـــل أمامـــه وســـط أصحابه ؛ لينتظر حتى ينفضوا من حوله ..

خطوهم البطيء ، يوحي بتبادل كلام في الدين ..

تصافحوا ، وانصرف رجلان . اتجه أحدهما نحـــو ســـيارة فخمـــة ، مركونة بجانب الشارع ، وأخرج الثاني مفاتيح ، وهرول بعيدا نحـــو صف آخر من السيارات . أشار الرجل الثالث للأول أن يأخذه علـــي طريقه .. في حين توقف ثلاث رجال ــ منهم الشيخ ــ أمـــام دكـــان عصير قصب .. شربوا أكوابا وهم يتحدثون ..

ثم تابعوا المشي المتأني والحديث .. أوقف أحدهم (تاكسي) ، وغـادر .. وتبقي الشيخ بصحبة رجل واحد . سارا حتى تجاوزا الميـــدان ، علي المهل الملول الذي ضاق به الضـــابط . أهــذا جــزاء احتمالــه لنصف نهار شمسي وراء رجل ؟

توقفا عند عربة يد لبائع بطيخ . اختبر الثمرات مع الـــدق ، وإمالـــة الرأس لسماع صوت الدق ، وهما يضاحكان البائع ، ويساومانه فـــي السعر .. ثم حمل كل واحد بطيخته ، وسارا جنبا لجنب ، تاق عبـــد الجواد ، الآن ، لحمل واحدة ، بعد صلاة الجمعة ، والدخول بها علـي عياله ..

مؤكد ، الرجلان يقطنان في شارع واحد ، فهما ، حتى الآن ، يحثـان الخطو ، تحت وطأة حمل البطيخ عرجا إلي أحـــد الشـــوارع .. مـــد الضابط خطوة .. دخل رفيق الشيخ إحدى العمارات ، وسار الشـــيخ وحيدا .. علي بطئه حتى بلغ آخر الشارع . دخل بيتا عتيقـــا واســـع المدخل .. صعــد أول درجاتـــه الرخاميـــة ، مشـــطوفة الحـــواف ، والضابط في أثره ، صعد نفس الدرج ، بوجـــل ، وقـــف الرجـــل ، والتفت بثقل بطيخته التى تحت الإبط .. سأل :

- الأخ يسأل عن أحد ؟

توقف عبد الجواد باترا شعوره المدهش من الوجل .

- أعذرني .. أبحث عنك أنت ..

لم يجد ذريعة لاعتذاره ، فعاودته الدهشة .. والشيخ ينقل البطيخة من تحت الإبط إلي أعلي الكتف ويقول :

- تريدني ؟ أنا .. أتعرفني ؟

- أعرفك ؟ طبعا .. ومن لا يعرف الشيخ صالح .. ؟

بش وجه الشيخ وصعد درجة ..

- أهلا بك يا أخيَ .. أ كنت تصلي معنا ؟

وصعد عبد الجواد درجة ، مغشيا بشعور الضابط المتصارم .

- .. وانتظرتك طويلا ..

صعد الشيخ درجة ، وأنزل البطيخة عن كتفه ، وتنشق تعبا ..

- لعلك تريد سؤالا في الدين .. مؤكد ، عندك مشكلة ، تفضل.

وكان بلغ الطابق الثالث ، ولم يبد عليه أية بوادر قلق ، أو ارتياب من الضيف المفاجئ ، والمصاحب له حتى الشقة ، ضغط الرجل بإصبعه جرس باب خشبي عال وعتيق ، فسمع من الداخل صخب عفوي انطلق من أفواه أطفال فرحين : جدو جاء ، جدو جاء : مقرون بأصوات نساء يضحكن علي استحياء ..

كانت واسعة ، قديمة الطراز . عالية السقوف ، والأبــواب ، يعلوهــا شراعات من زجاج مصنفر . محلاة الجدران بورق حــائط ، يحمــل براويز لصور عائلات الشيخ ، تجاورها آيات قرآنية ضخمة ، أســفل إحداها برواز لامرأة عجوز علق بطرفه شريط أسود . حدادا قديمــا ، و ...

تراكض الأطفال حول الجد وفي حضنه .. توقف بعض من شــباب ، ورجال ونسوة ، حملن عنه البطيخة ، وتوارين بصوته .

- وسّعوا الطريق ، معي ضيف ..

وهو يدعو ضيفه ..

- تفضل .. أولادي .. وأحفادي ، تفضل ، عائلتي . يجتمعون هنــا كل يوم جمعة . ربنا يخلي لك أولادك . تفضل ، أم لــم تــتزوج بعد ؟

وكان يتقدمه لإحدى الغرف المفروش بأركانها أرائك تعلوها رفــوف تحمل مجلدات وكتبا . ومصاحف . مع شبه [قبلة] للصلاة بركــن ، محددة بصورة ورقية كبري للكعبة . قال الشيخ .

- نتغدي الأول سويا .. ؟

تناولته الهواجس وهو يجلي ، قال

- شكرا .. سأتغدي مع أولادي ...

جملة شكر معتذر ، خرجت عفوا ، أشعرته براحة عميقة ، كمن يأمل في تناول غدائه ، بالفعل ، مع أولاده ، مع تعذر ذلك .

- لا يصح . أنت ضيفي .. طيب حاجة ساقعة .. ؟

مضغوطا كان بصمت هواجسه ، والظنون ..

- ممكن حاجة ساقعة ..

تأمل عبد الجواد الغرفة ، بوقت غيابه وعودتـــه ، بكـــوب الســـاقع ، وطبق به حبات " لقمة القاضي " . قدمها للغريب ، وهو يسأل .

- لم أتعرف باسم الأخ ، ووظيفته .. ؟

- عبد الجواد .. ضابط ..

تبسم الشيخ كمفتخر ، وقال .

- أهلا بك .. ضابط جيش ، أم ضابط بوليس ؟

- .. بوليس ..

قالها باقتضاب ، وأزاحها بلطمة ، والشيخ قال ..

- تعودنا ، يوم الجمعة علي لقمة القاضي . تفضل ، كل .. كثيرا ما يأتي رجـــــال مثلك لإيجاد حلول لمشاكل صغيرة ، وكلها تحل

بعون الله .. تناول عبد الجواد حبة أخري ، أزاحها بالمشـــروب ، وقال معتذرا ،

- مشكلتي . أنني جئت لاصطحابك معي ..

قال الضابط ، متخلصا من هواجسه ، ولم يبد علي الشيخ أية علامـــة فزع . قال متسائلا ..

- أنا .. ؟ اصطحابي أنا ؟

- أعذرني .. هذا عملي ..

- أد عملك يا بني .. هذا واجبك .

وقد تبادر إلي ذهنه مسائل في السياسة ، حرية القول في الخطبة .

- لكن عملي يحتم عليّ أخذك معي .

- وماذا في ذلك ؟ .. أذهب .. لكن لماذا ؟ أهـــو كالعـــادة ، كـــلام خارج ؟

- أبدا . لا كلام خارج ، ولا سياسة . بل جريمة قتل .

نهض الرجل بارتجافه ذعر .

- قتل ؟ .. قتل .. ؟ .. أعوذ بالله ..

- نعم . وأرجو ألا يشعر أحد من عائلتك ...

جلس بتجهمه المنذعر ..

- أنا متهم في قضية قتل ؟!!

- ليس تماما .. لكن التحقيق سيظهر بعض الحقـــائق مـــن خـــلال شهادتك .

- تحقيق ؟ قتل .. ؟ معي ؟

- أرجو أن تكون هادئا .. الأمر لا يستوجب كل هذا الذعر !

- أعوذ بالله العلي القدير .. ! .. شهادة قتل ؟

نهض الشيخ بنقل اندهاشه ، بنهوض الضابط الذي انتقل إليـــه ذعـــر الرجل .

- سأترك لك الأمر ، ولتأت وحدك غدا لنيابة محرم بك ..

***

تفحص النائب شكل الشيخ الجالس في وقاره ، يحوقل بتمتمات قلقة ،

- شيخ صالح .. تعرف أحدا باسم سمير الصياد ؟

لبرهة ، قطع الشيخ القلق ، محاولا استيعاب الاسم ، مستغربا قال

- سمير الصياد .. سمير الصياد .. أهو يصلي معنا ؟

- أنا أسألك .. أتعرف أحدا بهذا الاسم ؟

- اسم غريب ، لا أعرفه ..

- هذا الاسم لشاب قتل في شقته منذ عدة أيام ..

- وهل بإمكان رجل مثلي أن يقتل ؟

- الجواب بقدر السؤال يا سيد صالح ..

- أغلب معارفي من رجال الدين ، وجميعهم تعدوا سن الخمســـين ، أما الشباب ، فأنا أعرفهم في المسجد ..

- لكن اسمك ورقم تليفونك ، وجدناه مكتوبا في أجندة تخص القتيل

- صدقني .. أنا لا أذكر ..

- ذلك القتيل كان يسكن في منطقة محرم بك ...

ومض برأس الشيخ خاطر عبر كالبرق ، أرجفه لحظة ، وقال علـــي الفور .

- نعم .. نعم .. أذكر أنني ذهبت ذات يوم بعيد إلي منطقة محــــرم بك .. نعم أذكر .. مع ذلك الشاب المهين .. أهو قتل .. ؟!

- مهين ؟

- بالطبع مهين ، وشاذ ... أعوذ بالله ..

- وكيف عرفت كل ذلك عنه ..؟

- من تصرفاته الذليلة معي .. أراد ايقاعي في مذلته .

- كيف .. ؟

- ماذا يقول الواحد عن رجل يذل روحه ، ويهينها مع رجل ؟

- وكيف تصرفت معه ؟ أحك لي ..

تنهد الشيخ شبه مرتاح لخبر القتل ، أحس النائب بذلك ينجـاب علـي الوجه المنبسط . قال ..

- نريد معرفة تصرفك معه ، كيف عرفته ؟ لماذا ذهبت إليه ؟

- كنت عائدا ، يومها ، من عملي ، بحي الجمـرك ، فـي الثانيـة والنصف ، ركبت ترام رقم ٦ من عند باب (١) .. نزلـت فـي ميدان الشهداء ، اتجهت لأركب " مشـروعا " ليوصلنـي لبيتـي بسيدي بشر .. كان الميدان مزحوما كعادتـه بوقـت الظـهر .. والجو شديد الحرارة ولمحته .. هو الذي أجـبرني أن ألمحـه ، أوجه له نظري ..

فقد تعمد المرور بسيارته الصغيرة أمامي ، تريث ، وابتسـم .. ثـم ذهب .. وعاد ، وتوقف أمامي متعمدا ، وأيضـا ، ابتسـم .. أدرت وجهي عنه .. لعله يبتسم لشخص آخر من الذين حولـي ينتظـرون مثلي ..

لكنه نزل من السيارة ، وتوجه نحوي ..

كان شابا شديد النحول ، يلبس ملابس معقولة .. حديثة كـان خافتـا مثل بنت .. تطلع لوجهي ، وابتسم بفرحة طفل ..

تجاهلته بنظري الباحث عن عربة .. التصق بي ، أزحته بعفوية ..
ابتعد خطوة ، وعاد ، والتصق بجانبي كطفل مشـــاكس . وابتســم ..
وقال لي ، أنني أشبه خاله شبها كبيرا ..
أحسست بأسي وإشفاق نحوه . وقلت إنني ، مع الأسف ، لا أعرفك .
فأصر ، وبغصة الإنسان المتعب ، فاقد العطف والحنان ، أنني خالــه
.. خاله الغائب .. أو الضائع ، والذي عثر عليه أخيرا ..
وعليّ ، كإنسان ، أن أوحي له بأنني أصدقه ، حتى لو لم أكن خالـــه
.. يجب عليّ ، وقد بدأ يتجهم ، ويوشك على البكاء ، أن أكون خالــه
.. حتى لبعض الوقت .. ولو لوقت انتظاري واقفا ..
لا ضير ، وكل شئ بثوابه .. وابتسمت له ..
وفرح هو بذلك ، وقال أنه يتوجب عليه ، كابن أخت ، وجـــد خالــه
الواقف تحت شمس الميدان الحارقة ، وسط زحام الظهر الشــديد ، أن
يوصلني بسيارته .. لحد بيتي ..
رأيت أنه مريض ، كما يبدو .. وأنا عندي أولاد .. ولا يجب خذلانــه
أو إحراجه ..
وركبت معه .. كان يسوق بين زحام العربـــات ، والنـــاس ، وهــو
يطالعني ، كطفل غريب وتائه ، وجد قريبا له فـــي بلـــد غريـــب ..
ويضحك لوجهي ، ويقول انه وجد خاله الضائع ..

وراح يلامس كتفي ، ويهبط بيده علي صدري ..
ثم بكي .. بكاءا أسيانا ، أثار تعاطفي ..
طلبت الوقوف حتى يكف عن البكاء . قال أنه محـــروم مـــن حنـــان الأبوين والأهل . كلهم ماتوا ..
أرجفني الأسى الحزين لفراق الأحباب بالموت .. وأنه يعيش وحيدا .
ولا يريد مني ـــ كشبيه لخاله ـــ سوي أن أزوره كلما عزّ لي زيارتـــه .. لبيته حتى يشعر بأن له أهلا يسألون عنه ، ويحبونه ..
أي رجل في مكاني ـــ وقتها ـــ لا بد سيتأثر ، ويصاحبه ، ويخفـــف عنه في بلواه ..
يومها . كان يجب أن يتجه بالسيارة إلى طريق حدائق الشلالات ومنـه إلي طريق أبي قير .. لكنه توجه لشارع محرم بك .. قلت في بـــالي ، ربما يسلك ، أولا ، شارع الرصافة ، ثم الكوبري " أبو ثلاث عيـون " .. إلي ميدان وابور المياه ، لشرقي ..
لكنه عرج لشارع جانبي . شارع " جريس ..
ثم شارع آخر متفرع منه .. وتوقف وركن ..
وارتمي برأسه علي ساقي .. ونهنه باكيا ..
وربتّ علي رأسه المريض .. وكان يقول . أنه ابتلي بعاهة ســـيئة .. تشعره دائما بالذنب ، والتعب ، وعدم النوم ..

ولم أكن أعرف ، بعد ، ما تلك العاهة ..

إن كانت عضوية ، أو كانت نفسية .. الوحدة ، وفقدان الناس ، ليست بعاهة .. عاهة الروح أعتي ..

وقتها توتر .. ارتعش .. راح يهذي ، وخلال نشيجه ، بكلمات غريبة ، مثل ، خذني إليك .. خذني معك .. ضمني لحضنك .. كل الناس تركوني .

يا خالي .. يا خالي .. أنت كبير وقوي ، أنت تفهمني .. تقدر أن تريحني يا خالي .. تمنحني الحنان ، والحب يا خالي ..

استعذت بالله من بلاء الدنيا . وغمرني شعور عطوف جرف مني الدمع ..

قلت له أنني معه ، ولن أتركه وحده ..

كان رأسه المدفوس بحجري يتمسح كقطة أليفة ، ورعناء .. ويقول تعالي معي إلي بيتي . شف مسكني .. أقعد معي قليلا .. سنكون أصدقاء أحب كبار السن مثلك .. يا خالي ..

سوف تحبني جدا . أنا أحببتك جدا . وكان يبكي ، وأجفف دموعه ..

لم أكن أعرف ، بعد ، ما يدور برأسه ..

من أجل ذلك البكاء .. أعطيته رقم تليفوني ،.واسمي .. وعلي فكـــرة .. كان رقم تليفون المسجد ، ليطلبني عند أية مشكلة تصادفـــه . لأن الأصدقاء جميعا ، الذين أعرفهم أقابلهم بالمسجد ..

لكنه أصر علي أخذي معه للتعرف علي بيته ، وكتب تليفوني واسـمي ، في أجندته ، ووافقت علي الذهاب معه ..

غمره فرح مفاجئ ..

ولا أعرف . كيف تحول ، بسرعة . من الضعف إلي القوة .. !؟

بدا لي مختالا بنفسه ، وبي ..

ربما لكونه موجودا بين جيران شارعه الذين يعرفونه ..

ارتبت ، في الحقيقة ، لأمره الغريب . وفكرت في الرجـــوع : لكــن كيف لي المغادرة وقد شاهدني بعض الناس معه ؟

ربما يدعي القوة ، والخيلاء أمام جيران لا يعرفون حقيقة مرضه . عاهته المزعومة التى لم أعرفها بعد .. يكفيه الوحدة العائش فيـــها ، فصعدت معه ..

لكن .. عندما أغلق باب الشقة .. وأصبحنا وحدنا .. ضحك ..

ضحك بميوعة . وعهر ، وبذاءة ..

وقال ، أنه نجح في العثور عليّ ..

ودعوتي ! .. وحضوري معه ..! و .. سوف يسـعدني ! يبسـطني !!..

كان يتخلي عن وقاره المزيف ، ويخلع هدومه .. زهلت ..

كان يقترب مني .. من ذهولي .. ذهول زلزل روحي . وهو يلامـس أسفلي ، والعياذ بالله .

قوة ذهولي الغاضب ، رفعت ذراعي ، بقـوة غيظـي .. صفعتـه ، صفعته ، ذلك الوجه النجس ، صفعته ..

تكوم علي أريكة بجواره مندهشا ..

وكنت أسرع من قبل إفاقته من ذهوله المتكوّم ، أسرع لكـي أهـرب من إمكانية قتله ..

أهبط الدرج .. أهرب من الشيطان ، المهين ..

***

لم يستطع الشيخ الذي أرجفه التوتر ، التفوه بأي كلام آخـر .. ظـل يحوقل ، مترجفا ، غير واع .. لقول النائب .

- نشكر تعاونك معنا ..

أو لكاتبه ، وهو يقفل المحضر .

***

فكر عبد الجواد ، ورغبة في الرأس كامنة ، تتوق لرؤية ذلك الجـاني ، الغائب .. اللغز الغامض .. الطليق ..

كان يتوجب أن يكون حاضرا ، ظاهرا ، برغم جرمه الفظيع ..

مؤكد ، لو وجد ، كان سيجد ناسا يشاطرونه الشعور البذيء .

ناس ينظرون إليه نظرات مغايرة . ربما إشفاق ، ربمـا إعجـاب ..

ناس يمكنهم أن يقولوا له ، همسا ، أنه فعل ما كان أن يفعله آخـرون . فعل ما يرضي ضميره ..

وربما ، يجد من يشد علي يده ، ينصحه بضرورة الاختباء .. فلـولا قتله لذلك المنحل الشاذ ، ما انكشفت تلك الشبكة الوضيعة ومـا كـان عبد الجواد تأكد .. بأن هناك رجال ينحنون ..

لولا ذلك ـــ الذي هو بعرف القانون مدان ما فرض عبد الجواد حظـر الحركة علي روحه ..

ضبط ، متعمدا ، طريقة سيره المضايقة لنفسـه الموصومـة بالشـك البغيض ..

وما كان شدد ، بنحو مثير للدهشة ، علي أولاده الصغار .

بادئا برصد أفعالهم . تحركاتهم في الشارع . المدرسة . والإكثار مـن سؤالهما عمن يصاحبهما من أطفال ، موحيا ، بتعمد ، لأسـرة إدارة المدرسة بأنه ضابط بوليس ..

الاسم ، الإيحاء الممجوج ، المخبوء دوما بثنايا الــروح ، المرهــوب من بعض الذين يكونون للبوليس عداءا شعوريا منفـــرا برغــم أنـــهم أسوياء صالحين ..

لكن بشاعة التجربة القائمة ، والخائض ، لا يزال ، في أوحالها تحتـــم عليه أن يفصح عن طبيعة عمله المهم ..

فلا يمكن لأحد غريب أن يقترب من ضابط مباحث مهاب . !!

لكن . ألا يمكن أن تنتهك هذه المهابة من جانب أعداء خفيين ؟

شعور بالحصار مقيت ، محبط ومستاء ، غير مـــألوف . نقــل إلـــي الزوجة ، شعرت به وتعجبت ..

الزوج ، عبده ، يمارس سلطة الضابط الصارم ، الجدية المفرطـــــة ، المنفرة ، المستجدة عليه ، وعليها .. شبه قســوة مجـــهدة ، ضــــراوة كامنة .. لين الجانب واللسان ، تلبسه رجل آخر أكثر قسوة .

لا يتورع عن ضر بالخارجين عن القانون ..

رجل اندهش المخبرون والعسكر لتغير حاله ..

وما من أحد يدرك مبعث قسوته المفاجئة التى اتشح بها مؤخرا ..

قسوة ، ربما ، يعوض بها شعوره بالمقت البغيض نحو ذاته ، وفســـه التى مسها الخجل والخوف القابع بقاعه ..

من احتمالات مطمئنة علي مصائر عياله ..

احتمالات .. ! نعم ، مجرد احتمالات ..

قسوة ولدتها قضية غريبة ، ما زالت تسبح في المجهول ، قضية يتوجب الانتهاء من ملابساتها ، سلخ كيانه المؤرق فيها ، روحه النائمة علي أسرار ، شبه شخصية ، لا يمكن البوح بها أو التفريج عنها . أسرار ينوء بحملها وحده .. وحده فقط ..

***

بإصبع ، كان يطوي في صفحات الأجندة ..

أرقام تترى ، تغيب .. مع الصفحات الأولي ، إلي منتصف الأجندة .. استوقفه رقم . أمعن فيه النظر ..

رقم بإحدى المناطق البعيدة ..

استاءت روحه من رسم دقيق بقلم أحمر لشفاه ..

***

٥ القميص الأحمر

العربة (البوكس) ، توقفت ، بجانب العمارة ..

غادرها الضابط ، وعساكره الثلاثة ، هرولوا نحو المدخل الزجـــاجي الفاخر .. صعدوا ..

ولم تمض عدة دقائق .. حتى تساقط الجسد ..

تساقط من الشرفة التى بالطابق السابع ..

الشرفة العريضة ، الموازية ، لعرض واجهة العمارة .. والمؤطــــرة بالنبات الأخضر ، والورد ..

تساقط ، كأن ، في فضاء بين صفي العمارات بالشـــارع الواســع .. يتوزع ، منفرط الأعضاء ، كمن يروم التمسك ، التعلق بشيء آخــر ، غير الهول ، شئ يُنجد تساقطه الصامت ، الواعـــي المـــروع ، لمـــا يمكن أن يفكر به الناس عند اكتمال السقوط . كاتما صراخا شنيعا قــد اعتراه ، احتواه لشعوره بلحظـــة ارتطامـــه بالإســـفلت .. وإحاطـــة المتفرجين به ..

ارتطام ، وأرض ، وجسد عار ، مكشوف ..

فقط ، معلــــق بأكتافه حمالتان رفيعتان لقميص نوم أحمر شفاف .

منحسر ، ربما ، عن اللحم المنتوف ، عند التصاق الجسد بالأرض .
هامدا .. سوف يزول — حتما — إحساسه بالخزى ، يُمحى بـالموت ..
كل شئ سوف يزول ، بعد أول هبدة بالإسفلت ...
لم يره أحد وهو يهبط ..
كان الليل جاثما فوق الأبنية المتطاولة ، الموصومة بالهدوء الممض .
ليل معلق الأطراف السفلي باختراقات أضواء المداخل الملقـاة علـى الإسفلت المكنوس ..
ليل متلاعب ، راوغ عيون بعض السكان المنعمين بأمن الجـدران .
لكن ..
أرجفتهم الهبدة المباغتة ، العنيفة ، فلقت الـهدوء السـاكن ، السـائد تنبهوا فزعين .
هبدة روعت المارة ، وأصحاب الدكاكين المفتوحة ؛ فتعالي الصخـب ، وتفاقم بأصوات رجال أمن العمارات ، والهلع ..
ألجم الفزع الألسنة للحظات قصار ، لحظات الرؤية ، للنظـرة الأولـي ، والتي أحالت تفكيرهم لجسد امرأة عاريـة ، ألقيـت ، عمـدا ، أو انتحارا من أعلي ..
.. لكنه رجل .. جسد رجل .. وعار ..

لفظ أنفاسه بمجرد ارتطامه بالأرض ، وربما لفظها أثناء التســـاقط ، فقد ارتطم ، وسكن تماما ..

هبط كجوال قش زحزحه الهواء من علي جــدار ســطح ، أو كيــس قمامة ألقت به امرأة ، خلسة ، من نافذة مطبخ إلي الشــارع لينفجــر متفسخ الجوانب ..

ارتطام ، وهمود ، واحتمالات شتي فكر بــها الذيــن حوطــوا كــوم الحطام ..

لم يفكر أحد بأن يتبرع بإلقاء صفحة من جريدة ، أو جوال قديم لســتر الجثة .. جثة بقميص حريمي شفاف أحمر .

قميص كبح رغبات الاقتراب والتغطية فيهم ، فظلوا واقفين بالتيــاع ، يرقبون وقوف عربة البوليس التى جاءت منذ دقائق .. دقائق تخللــت رحلة السقوط ..

أهو رجل .. ؟ .. امرأة .. ؟! .

لكن الجسد الهامد فاجأ النسا بانتفاضات رعشة ، متلاحقـــة ، فرفــر بحلاوة روح ما زالت قائمة ، مراوغة ، مســـتبدة بالجســد ، تــأبي الخروج ، لتشعره بالموت البطيء ، الموجع ، والمعلن ، المفضــوح ، وليحس بتقزز الناس ، وتباعدهم المتطلع لعريه .. كان يمكن لأي

متفرج أن يفعل شيئا لأجله . لأجل ستره ، لكن . القميص المنحسر .. الجلد المنتوف . والدم النازف ..!

(بوكس) الشرطة الواقف هنا ، حيال العمارة ، جاء وتوقف ، مثل كل العربات الأخرى التي تجئ بأصحابها ، ويدخلون العمارة .. غرباء . يأتون كثيرا ، ويصعدون ..

ولم يهتم أحد من المتواجدين بالشارع بأمرهم .. أفندية مغرقون في الأناقة ، والوقار ، والكبر ..

لكنهم ، ولعربة الشرطة بالذات ، ارتابوا ، ولهرولة الضابط ورجاله ، ارتابوا ؛ لصعودهم السريع ، واختفائهم بين الطوابق ، ولم يخطر ببال أحد أن أحد سكان العمارة يمكن أن يرتكب جرما .

كلهم محترمون ، مهابون . لديهم سائقون وخدم ، بعضهم كان يسكن بالشوارع الخلفية ، وبعضهم جاء من بعيد .. كان الصمت يغلفهم والهدوء ، بمجرد إغلاق أبواب شققهم عليهم .

فما داعي وجود عربة شرطة الآن ؟

ثم سقوط هذا بعد دقائق قليلة ، انتظروا فيها حدوث شئ غير مألوف ، كاصطحاب لص ، أو امرأة عاهرة ..

الجثة لرجل ميسور الحال . مظهره يوحي بالثراء ..

كانوا يبجلونه بالشارع . يحيونه بالوقوف عند مروره .

أحيانا يمدون أيديهم ويصافحونه ..
اندهاشهم صار موجعا . أودي بهم لإحساس ذاتي مبغـــض ، بأنـــهم كانوا مغفلين . مخدوعين ، تافهين ، مضروبين علي الأقفية ..
لا يقدر أحد أن يفرض علي رجل ارتداء قميص نوم أحمر حريمـــي . أو يفرض عليه الصعود لسياج الشرفة ويزج بنفسه هكذا يسقط ..
- مؤكد ــ سقط باختياره ..
أو هناك دافع آخر .. ؟

•••

كان الضابط وعساكره علي بسطة الـــدور الســـابع ، أمـــام البـــابين المتقابلين المتشابهين .. الباب الأيسر مكتوب عليـــه اســـم المطلـــوب إحضاره ، نفس الاسم المدون بـــ (أجندة) القتيل ..
دق الضابط الباب .. وانتظر لحظة ..
لحظة سمع خلالها ضجيجا مكتومـــا .. أصـــوات بعيـــدة لرجـــال ، أصوات مبهمة ممزوجة بضحك خـــافت ومتقطـــع ، مـــع تحريـــك لزجاجات ..
لم يُفتح الباب ، الذي دُق عليه ، وفُتح الباب الآخر ، المشابه .. فُتـــح بمواربة ، بدت منه امرأة بيضاء ، في الأربعين ، يلف وقارها الفاتن

والأنوثة الهادئة ، (روب) أصفر من الحرير ، المشـــغول صـــدرهُ بالقصب المذهب ، ملموم شعرها الأسود الحريري ، خلف إيشـــارب أبيض ، أضفى ، علي الوجه المشرب بحمرة ، ألقــا يجــذب النظــر ويجبر المرء علي التوقير ..

قالت بصوت هادئ ، مستغرب .

- نعم .. ماذا تريدون ؟

لم يأبه لها الضابط ، ورفع إصبعه ليعيد النقر علي الباب ، قال بيـــن فتحها للباب ، وتقدمها الهلع لمنعه معاودة النقر :

- تفضلي أنت واقفلي بابك .. لا شأن لك ..

كان إصبعه مرفوعا ..

- أرجوك لا تزعجهم .

منتظرا غلق بابها .. معيدا قوله شبه الأمر :

ـــ تفضلي ادخلي وأغلقي بابك .

كان الضجر قد لاح علي وجهها ، وهي تقول :

- من فضلك أنت . كف عن إزعاجهم ..

قاطعها بصوت صارم ، مفتعلا الهدوء :

- نحن نريد هذه الشقة .. هذا المذكور علي بابها .

كانت تقدمت خطوة أخري ، وبتبرم واضح .. خطوة كشفت عن قـــوة وتناسق جسدها الملفوف بالروب اللامع ، وما خلف وقوفـــها الثـــابت من ثراء وثقة حازمة ، قالت :

- هذه شقتنا أيضا . الشقتان مفتوحتان علي بعضهما ..

ولصوتها متعمد الخفوت والحذر . افتعل الضابط الخفوت :

- زوجك ؟

- زوجي ..

- نود مقابلته .

بهدوء تراجعت خطوة ، وعلي استحياء

- لكنه في اجتماع الآن ..

كانت توقفت بوسط بابها ، مفكرة في مواربته ، موارية نفسها .

- لكني أريده ..

متقدما نحو الباب بخطوتين ..

- لا يمكن أن يتحدث مع أحد الآن ..

تراجعت إلي الوراء بذعر متكبر ..

- آسف لك جدا .. لا بد من أداء عملي ..

متجاوزا بذلك موقفها ، كمقتحم ..

- لا يصح أن تدخل هكذا ..!؟

مفسحة لمروره طريقا ، لعدم الاحتكاك بها .

- هذا بيت محترم ..!

كان قد بلغ الصالة الفاخرة ، باحثا بعينيه عن الباب بين الشقتين .

- بيت محترم جدا ؟! اجتماع رجال . !؟

توقفت أمامه بإصرار معاند ، مانعة تحركه السريع نحــو الأبــواب ، مشيرا لعساكره أن ينتظروا أمام الباب الآخر بلا صوت ..

هي الأخرى ، كانت تقاوم تقدمه بلا صوت ، تـــهرول حيـــال بدنـــه المتحرك بدهشة . دهشة محت وقارهـــا ، حزمـــها ، مدافعـــة عـــن مواصلة اقتحامه الغريب لباب مغلق يؤدي للشقة الأخرى ، لاجتمـــاع مهم حرصت دوما علي توفير الهدوء من أجل إتمامه كمـــا ينبغـــي ، ويحب زوجها ، ..

- أرجوك ...

قالت بثقة وبراءة ، بوقت اقتحامه ، مع حذرها المدهوش ، والمفكـــر في مدي جرأة الضابط ، مدركة بوعيها الباطن خطورة ما لم تعرفـــه بعد ..

هناك — لا بد — سر خفي ، أغلق علي رأسها وجسدها المقاوم لاقتحام الضابط لباب فاصل حاولا ، معا ، إدارة صراعهما ، بالتقدم ، والمنع ، بالخفوت ، والحذر . أمامه باب حين يغلق ينام الكون .. يستتب الأمن الروحي والسلام تمحوه من رأسها وليس موجودا ..

باب ، رغم سيادتها علي البيت ، لا تتجاوز عتبته ، وهم خلفه ، تعلم ، فقط ، أن خلفه تدار صفقات — حتما — تعود عليهم بالمال .. لم تفكر ، مرة أن تقتحمه ، وبداخله الأفندية ...

ربما يدار خلفه — بعيدا عنها — لعب القمار .. أو .. مؤكد ، يفعلون ما يخالف القانون .. لذلك ، تمسكت برغبة بعيدة ، رغبة وامضة ، مع صدها له ، لمتابعة الضابط الذي تم اقتحامه ، بالهدوء الذي نشده ، والحذر الذي أرادته لعدم إقلاق الزوج ، ولرغبتها الدفينة ، والملحة ، لمعرفة ما يدور وراء ذلك الباب ، الشقة الأخرى ..

كانت بظهره .. غير مدركة ، إن كانت تمنعه ، أو تدفعه ..

فمهما فعل الزوج ، وأصحابه من أفعال مخالفة للقانون — إن كانوا يدبرون خلال سنوات طويلة ، سنوات عمرها معه — لعقد صفقات مشبوهة ، أو يلعبون القمار ، أو يتعاطون المخدرات أو حتى يتحدثون في مساوئ الحكم .. هم أحرار ، وفي بيت زوجها ، ولا يحق لضابط اقتحامه .

توقعات ساورت رأسها التائق بلهف ، لمعرفة ما يجري وراء البـــاب من اجتماعات ، كانت تفرض عليها الحظر ، والحذر ..

كانت تلمحهم ، أحيانا ، متأنقين بالوقار والفخامة ، عند دخولهم مـــن الباب الآخر ، وتشعر بهم ، ويتحول هذا الشعور بالفخامة إلي توقـــير ، وإعزاز لكونها تجاور ، كراعية ، تلك الجلسات المهمة .

ترعاها من مكمن جلوسها النائي بغرفتها ، إجـــلال يعتورهـــا دومـــا لكونها حارسة ، ومباركة ، ومشاركة بالوجدان لهذا الكون الدائر بـــه اجتماعات مهمة ، ورجال ، أكثر أهمية .

لم تسمح لنفسها ، ولو مـــرة ، بالتجســـس علـــي البـــاب ، أو حتـــى الإنصات ، أو سؤاله عما يفعلون خلف الباب ..

هو الرجل ، الزوج ، الوقور ، المبجل ، راعي هذا الكون .

يكفيها شعورها بالرضا ، والجمال والفخر . شعور يســـمو بروحـــها لقمة الحبور والمسرة ..

يكفي الوجود خلف هؤلاء الرجال المجتمعين ، الذين لم تعرف يومـــا عددهم . إن كانوا أربعة ، أو خمسة .. أقل ، أو أكثر يجيئون ، كـانوا ، ويعبرون الباب الآخر ، ويخرجون منه ..

.. وتقضي الوقت الحذر ، بركنها النائي ، تطالع برامج التلفاز الدينيـة ، أو تقرأ في كتاب الله ، او تقيم صلاة العشاء ..

تم اقتحام الباب . وكانت بظهر الضـــابط ، تشــده ، أو تدفعـــه ، أو تحتمي به لا شعوريا ..

تحتمي من مغبة غير المتوقع ، وما سوف تطلع عليه ، وتعرفه مـــن حقيقة ..

كان يدفعها برفق ، وهي تتعلق بظهره ، تشده .. لكنـــها شـــاهدت .. شاهدت ، بوغتت ، وألجمها الذهول ، جمدها ..

ذهول أبطل كل التوقعات بخيبة شعور مروعة ..

ذهول أفاقها بعد صمت الحذر والمقاومة ، والخوف ، ذهول وحشي ، اعتقل اللسان ، وغص بالحلق ..

الزوج وأصحابه ، الأفندية .. عراة .. عراة ، وملتصقون . أحدهـــم بالآخر ، بلحظات تائهة ، غائبة عن الوجود .

لحظات انفعال لذة الشبق العارم . لذة أفقدتهم الوعي لســـماع دقـــات قلوبهم . أفقدتهم فك التحامهم والتخلي ، حتى عنـــد لحظـــة اقتحـــام الغرفة.

وقف الضابط مشاهدا ، مبهوتا ، وقد تم ترويعهم الساحق بالمفاجـــأة ، وانفلاتهم المريع ، تحت نظرة ذهول لامرأة مشدوهة .

نظرها الذي هرب مبتعدا ، ينقب عن زوج بيـــن العـــري ، اللحـــم ، الجاثم عليه الخرس . وقد انفرطوا واقفين ..

عليهم غلالات ، قمصان نوم من حرير ملون ، شفاف .

يوارون الربكة الرهيبة بالامتقاع ، والخـــزى ، والتســـليم ، رافعيـــن الأيدي لمسح مساحيق كانت تلون السحن الخشنة ، والتي ترهلت ..

رجال انكبوا علي الفزع المربك ..

خروا أرضا ، أو علي المقاعد ، وأطـــراف الأســـرة ، تســـاقطوا ، منكسي الأدمغة ، البيضاء ، السوداء ، الصلعاء كمنتظري الضــــرب بالنار .. الإعدام الفوري ..

متمنين لو تقاربت الجدران المتباعدة ، انطباقها عليهم ، ضاغطة ، لو تلاشوا . ذابوا في عرقهم ، لو صاروا مياها تتسرب خلال البــــاب ، من عقبه ، أسفل أقدام الضابط ، والمرأة المشدوهة ..

امرأة غابت عن النفس ، إلا بنظر منقب ، دائر ، يود لو حـــط علــي رجل يهمها وحدها ..

رجل كان هنا ، معهم ، وذاب ، اختفي .. كان موجـــودا ، بقميصـــه الأحمر ، حين أقبلت بظهر الضابط .. كان هنا .. بلحظـــة الاقتحـــام المباغت .. بلحظة الذهول الأولي . لحظة لم تميز فيها شكله العـــاري بين اللحم الملتحم .

كانوا متشابهين ستة رجال ، كتلة لحم ، كتوأم لبطن واحـــدة ، بطـــن حملتهم سفاحا ..

كانت عيناها فوهتين لبركان يغلي . تدوران علـــي اللحـــم المنكمـــش الخزيان ..

حين أمرهم الضابط بارتداء ملابسهم ، انـــهمكوا فـــي جمعـــها مـــن الأركان ..

علي الأرض ملقاة ، كانت . مع أنواع شتي من أطعمة ، وزجاجـــات خمر ، ومعلبات ، مشروب نصفها ، أعقاب سجائر فـــي طفايـــات .. أشياء لم تكن تعرف اسمها ..

كانوا يلملمون ــ كعادتهم ــ كما يبدو ــ فوارغهم ، تلك ، ويضعونها في الحقائب ، ليأخذوها معهم عند المغادرة ..

بسراويل رجالي مخلوعة . قمصان . بنطلونات . جاكتات . أربطـــة عنق وجوارب ..

لبسوا الأحذية دون جوارب ، وبلا ربط ..

أربطة العنق وضعت في الجيوب .. بقلق مستســـلم لمصـــير مبـــهم مجهول ..

الزوج ليس موجودا بينهم ، ولم يتخط الباب الذي خلفهم ولا يســـتطيع الهرب عاريا بقميص نوم شفاف فاضح من باب الشقة الآخر ..

ليس هناك منفذ آخر ..

هرولت بصمتها الساحق نحو الشرفة ..

ليس هناك منفذ آخر يستطيع اللجوء إليه ؛ للاختباء ..

كان هناك ترتعد منه الفرائص ، مبهوتا بقميصه الأحمـــر . يزلزلـــه الخزي والفزع . مبلولا ، متبولا علي نفسه . فأر مسلوخ ينفـــر مـــن مُطارده ، بعد خروجه من بالوعة صرف نتنة ، لائذا بالاختبـــاء وراء شيش الشرفة ، بقميص ، لم ترتد هي واحدا مثله ، في أحلـــك ليـــالي العشق الفائتة !!

لم تستمرئ يوما ، قمصان النوم الشفافة التي كانت تشـــعرها بـــابتذال الجسد والروح ، من أجل لحظة بارقة ، سرعان ما تزول . كـــانت ، لذلك ، تطفئ أضواء الغرفة عند اللقاءات التـــي حســـبتها ، كثـــيرا ، حميمة ، مع ذلك ، لم تكن تعري له سوف نصفها السفلي ..

وقت وامض ، كان يحاول فيه إثبات الرجولة ..

من ملاذه الأخير ، يطلع بوجه العرق والمساحيق والمذلة ، وجهـــــها الصامت الملتاع ، المبغض المذهول .. كمذنب مساق لمذبح ، ســـوف يجره لحتفه المكشوف عنه السوء ..

لم يراودها أي خاطر . أو ومضة تذكر بولدهمـــا الوحيـــد الموظـــف المرموق ، والمتزوج ، العائش ببلد آخر ، ولا خطر ببالـــــها العمـــر الذي تسرب من بين تواجـــــدها المعلـــق بتواجده ، ولا خطر ببالها

انتشاله من البالوعة التى كان يعاشرها فيها ، وهي غافلة ، عميـــاء ، صماء .. وكان ..... وكان ...... يساقط .... يتهاوي .....

***

دهشة الرؤوس المحتشدة ، علي الأرصفة ، عطلـت التفكـير بسـتر الجثة ، ولو بـــ (جرنال) قديم ، أو جوال بـــال ، أو حتـى بقطعـة خيش من تلك الملقاة علي العتبات كممسحة أقدام ..

فقط ، أسئلة تتقاطر ببعض التكهنات ، التخمينات ...

شاهدوا الضابط ، بصمته الصارم ، يهبط درجات المدخل الفـــاخر . يتبعه العسكر ، يسوقون أفندية .. أفندية منكسي الأدمغـــة المشـــعثة ، والوجوه الملونة ، والثياب المتهدلة .. يجرون أقداما متثاقلة ..

لم يكلف أحدهم نفسه النظر لجثة ملقـــاة عاريـــة ، هـــامدة ، كأنـــهم يحسدونه ــ بوعيهم ــ علي موته ..

الضابط ، أيضا ، لم يهتم ــ حين اتصل بالنيابة بتليفـــون السـيارة ــ بشكل الجثة ، أو محاولة التعرف علي طريقة الموت ، السقوط وسـببه ، إن كان انتحارا ، أو دفعا من أعلي ، بل خامره شعور مريح نحـــو جمهور وقف متفرجا ، رافضا تغطية الجثة ، أو الاقتراب منها ..

***

أوصد الضابط باب غرفة مكتبه ..

بقايا الرجال ، المتهمون ، مدليي الرؤوس ، واقفون بجانب مقاعد من الجلد تواجه مكتب الضابط الذي حمل أشياءهم الخاصة ، سلاسل مفاتيح من الفضة والذهب ، أجهزة هواتف محمولة ، مناديل ، حوافظ نقود ، وبعض صور عائلية ، نظارات ، ولاعات فخمة ، وعلب سجائر ، شرائط حبوب دواء ..

كالمنشغلين كانوا بأشكال السجادة المنحول وبرها عند أقدامهم ، زائغة أبصارهم التى تبلدت في مربعاتها — مؤكد — تشبه سجاد بيوتهم المجسدة الآن داخل أدمغتهم المدلاة .. بيوتهم الخاوية منهم ، والتي تنتظر عودتهم من أعمالهم المهمة .!!

الضابط اتخذ من الصمت المريب الغامض متكئا .

كان يدور حولهم ، يجوب هيئاتهم العرقة المرجوفة . توقعوا الضوب من الوراء . استباحة الظهور والأقفية ، كذئب جائع وماكر ، يدور ، متأملا ثيابهم الفاخرة ، المكموشة ، المكرمشة . يتأهب لنهش البطون المنقبضة ، المصارين المتقلصة ، يعاين فرائس حوصرت وتقوضت.

توقف بقرب أولهم في الصف . وجه هارب منه الدم ، رغم اكتنازه ، وبياض فوديه ..

- اسمك ....

سؤال حانق ، وجواب متهتك الحروف .

- ذ .. ك .. مســـ .... عو ....

كان الضابط قد تناول إحدى البطاقات العائلية ..

- أنا أيضا لن أذكر اسمك .. لن أنطق به .. لا يجب أن يكون لكـــم أسماء ... تاجر .. العمر ٥٠ ســـنة .. الديانـــة ... لا تســـتحق حملها .. ولا الجنسية تستحقها ...

لا .. لأن لا جنسية لكم ..

تفوه ارتباك الأول

- نعم ... سموك ..

تهكم الضابط ..

- سموي ؟! هل تعرف عائلتك بخيبتك .. ؟

وكان يتصفح البطاقة ، ورأس الأول يتدلى ، ثم خر فجـــأة راكعــا ، كطفل يقطر منه الدمع ، محاولا تقبيل القدم ..

- أرجوك .. لا تُعرّف عائلتي ..

- المرأة الداعرة لا تنحني هكذا مثلك ...

للبكاء صوت أغاظه ..

- لا أريد منكم غير الحقيقة .. من منكم القاتل .. ؟

اعتلت الوجوه دهشة المناجاة ، فارتفعت عـــن الانتكـــاس ، امتقعـــت بخبر ليس متوقعا سماعه ، فأعاده الضابط ..

- من الذي قتله منكم ، ووضع له الخازوق ؟

قالت دموع الأول ..

- .. صدقني .. عرفت فقط أنه قتل ...

كان الضابط يدير الهاتف نحوه تأهبا لاستعماله ، فأناخ الأول رأســـه المرتعب ..

- من أين عرفت أنه قتل ؟ مؤكد أنت ....

" لا يمكن لهذا الماجن الباكي المرعوب ، أن يقتل بعوضة " .. فكـــر الضابط مع تضرع الباكي المتوسل .

- كيف أقتل صديقا عزيزا ؟ واحد منا ؟

رفع الضابط السماعة ، موهما اياهم بطلب رقم

- لكم ، طبعا ، أصدقاء أعزاء بعدد طوب الأرض ..

قال الأول الراكع ، محتميا بذكر الضابط ، بأن الأصدقاء كثرة فليـــس هو وحده ، فقط ، الداعر ..

- البلد ملآنة .. سموك ..

- سموك هذه يعاملك بها الناس ؟ الأصدقاء ؟

وأدار أول رقم في الهاتف وهو يقول :

- رقم منزلك هو ......

تقوقع الأول في دموعه ، علي بؤسه ، قال الضابط :

- البلد ملآنة منكم ؟ أنا عرفت بعضهم ، أريد معرفة الباقي ..

- أرجوك ... دع عائلتي ..

قال ، وقد اكتمل انهياره ...

....

فكر الثاني في طريقة استجوابه ، فالدور عليه ، مع إدراكـــه لوســـيلة الضابط الإرهابية الضاغطة ، باستعمال الهاتف ، وإخبـــار العـــائلات بالواقعة ، واهما نفسه ــ بالتخمين ــ بأن الضابط مهما كان شرســـا ، متغطرسا ، متعجرفا . هو إنسان ، يمكن يشفق ، يلين ، يرحم إذلالـــهم بعدم الاتصال .. فقد وضع السماعة ، ولم يرفع يده من عليها ، لكـــن تطرق لرأسه المدلي ، مصنعه ، وموظفيـــه ، وعملائـــه ، وبعـــض أصدقاء لا يعرفون سوي شراهة الأكل ، مصاحبة الكأس ، وعشـــق الفلوس . قليل منهم يمارس الهواية مثله ..!

أقام رأسه بحذر .. كان الضابط ينظـــره بعيـــن مســتهينة ، الوجـــه المستسلم غير عابئ لأي ضغط ، متأهبا لأية مواجهــــة ، يمكـــن أن تتجيه من مشاعر الخوف المستبد بقاعه ..

تحرك الضابط نحوه ، واجه قفاه الحليق والشائب ..

- ... اسمك ... ؟

صوته المبحوح محتبس بغصة . متعثر النطق .. قال الضابط عنه :

- خلاص .. لا أريد سماعه .. الســـن ٤٥ .. أعـــزب ، صـــاحب مصنع أحذية .. طبعا لا بد أن تكون أعزب .. من مـــن هـــؤلاء زوجك ؟ لم تعد تجدي الإهانة ، ترسبت في القاع ، مدركا كونـــه زوجا لأكثر من واحد ، وذلك لا يمنع كونه رجلا ثريـــا يخضـــع لأوامره الكثيرون من الرجال .. نطق يقول ..

- وجدتني عاريا .. يا باشا .. هذا قدري الأسود .

نافد الصبر ، قال الضابط :

- .. من فيكم الذي قتل .. سمير الصياد .. أريد اعترافا ...

تباكي الصوت المبحوح بارتعاشة بدن :

- أقسم لك .. يا باشا ....

نهره متضجرا ، متهكما ..

- تقسم علي ماذا .؟ بالشرف ، أو المصحف .؟

لم يجب ، تخاذل ، مختل الأوصال ، تهاوي ، حاملا رأسه ...

....

كان الثالث يدرك قرب دوره ، فاندفع يتفوه بصوت أنثوي .

- نحن لا نعرف القتيل .. لا نحب لون الدم . حتى العراك لا ..

صوته الأنثوي مفرط الخلاعة . أغاظ الضابط ..

- هل وجهت إليك السؤال .؟

وكان تناول بطاقته ..

- أنت زوجه ... ؟

غريبة كانت تمتمات الخلاعة ، مضغومة وناعمة ببحة غنج تلاعـــب بها اطمئنان مراوغ لرابع قال :

- العنف والدم للناس المتوحشين .. نحن نحب السلام خالص .

غيظ الضابط كان يتفجر ..

- لأنكم جبناء ..

نكس الرابع رأسه ، مخذولا .. ارتعد بدن الخامس ، موشـــكا علـــي التهاوي .. تفشي شعور الإذلال ، وحدهم ، احتموا به كملاذ لا مفـــر منه . تماسكوا بوهن خانع ، والرابع ينشج قائلا :

- نحن لا نعرف القتل .. ما الناس بنا . ؟ نحن أخوة متحابون يحب بعضنا بعضا .. علاقاتنا فيما بيننا .. أحرار ..

كان الضابط يدور بصمته ، محتملا الهراء الطافح من أفواه الخلاعة والانحلال ..

- .. نحن لم نضر أحدا ...

- .. ولا نسئ لأحد ..

- .. هناك كثيرون .. لماذا لا تبحثون عنهم ؟

وقد شاع شعور المهانة الذي وحدهم ، امتلأوا بــه واحتواهــم حتــى أصبح اعتياديا ، جماعيا . ولم يأبهوا — بعد — لأية ضغوط أخــري تمارس عليهم ..

كأنهم كانوا صحبة علي مقهى ، قاعدين ، يلعبون الطاولـــة ، حيــن هوجموا ، وقبض عليهم ..

لم تعد تجدي عمليات الترهيب التليفوني ، حيال شــعورهم المتوحــد بتسليم أنفسهم لمصيرهم المجهول ، غير آبهين لأي إرهاب يمكــن أن يزيدهم خضوعا وانكسارا لحد التساقط .. لو علم أهلوهم بالفضيحــة ، أو لا يعلمون لكن شعور التوحد ، شبه القــوي ، والأجــوف ، كــان محاصرا ، في نطـــاق الغرفة ، جدران المكتب ، أمام ضابط شاب

متجهم يدور من حولهم ، مكتفيا بالصمت ، شبه الحـــائر ، والنظــر لأبدان تفاقم خزيها ، المتعب ، فبدأت تسّاقط ، أرضا ، واحـــدا بعــد واحد .. مفكرين بتبدل هذا الشعور الجماعي المتوحد عند عرضــــهم علي النيابة .. أمام هيئة محكمة .. أمام رجال مثلهم .. ماذا ســـيكون الحال ، والقاضي يتلو تفاصيل الواقعـــة ؟ .. ربمـــا يكلــف ذووهــم محامين للدفاع عنهم ، وبما يدافعون ؟ .. هل بمقدرة الابــن ، أو الأخ ، أو الزوجة ، والأقرباء دفع أتعاب محامي للدفاع عن أب شاذ ؟ ماذا يقولون في قضية دعارة رجالي ؟ كف الضابط عن الدوران حولهم . كبتهم شعور التوحد ، ضغطهم . تهدلوا متباعدي الوجوه كأن أحدهــم ينفر من الآخر ، لكن واحدا ظل واقفا ، متأهبا بقلب يخفــق لصـــوت الضابط الغامر ، والمتقوقع برؤوسهم .

- حبكم لبعضكم لا يضر أحدا ؟ غريبة ؟! . حبكم هذا حب فاســد ، يضر المجتمع .. أنتم أشد قسوة وخطورة علي المجتمــــع ، لـــو تكاثرتم وظللتم تجتذبون آخرين في شبكتكم الفاسدة ، والمجتمــــع جزء من الوطن ، فأنتم تخربون الوطن ...

لم يكونوا يعلمون ، أن الضابط يمكنه تحويل الموضوع لقضية وطنيــة ، تؤدي إلي الإعدام ، فامتقعوا بخوفهم المرتعد ..

- أنتم عملاء شر ، تدمرون الناس في الخفاء . شركم الذي تسمونه حبا ، سوف يظهر تأثيره المدمر علي المدى الطويل ، يلوث أبناءنا وأحفادنا .. أقذار .. مؤكد جندكم العدو بعد أن تعريتم أمامه ، لنشر المرض .. حلال موتكم بالأحذية .. وفي الميادين العامة ..

سكت الضابط ، كابحا تدفق شعوره الحانق الذي تجاوز مهمته البحثية والتحقيق في قضية قتل ، وليس محاضرة أخلاقية لأناس بلا خلق .. ابتلع ريقه ، شاعرا بسخونة دماغه واحمرار عينيه ، أخذ نفسا عميقا ، كان معبأ برائحة بول بدأت تهيم بجو الغرفة الخانق .. فمد ذراعه ودفع ضلفة نافذة خلف ستارة مسدلة . وتقزز .

- لو علم زملاء الجامعة ، الأساتذة الأجلاء ، إنكم هكذا .. ماذا يكون الحال . ؟ ولو عرف بذلك جيرانكم ؟

صوته في لحظات الصمت المتجاثم يوخز الرؤوس . بنفس كل واحد أمنية الخلاص ، لو لقي نفس مصير زميلهم الذي سقط ، آخذا معه ارتعابه والعار . تاركا فضائح عريه إرثا يتوارثه الأبناء ..

- لا أريد منكم غير الحقيقة ، من منكم القاتل .. ؟

أسلم الواقف ، بقلبه الخناق ، خوفه للسانه ، وبدأ يقول ..

- سأعترف بالشيء الذي أعرفه ... لكني لم أقتل ... سمير واسع .. معارفه واسعة .. أي واحد ممكن يدخل عنده .. يحب كل الرجال ... يحب يتعرف علي رجل قوي .. ولا يهمه شئ .. يقدر يوقع أي واحد يعجبه ...

كنا نبعد عنه من أجل ذلك .. وحذرناه كثيرا جدا ، عدم معرفة الأغراب ، أو الاتصال بهم .. لا يهتم ، أو يسمع النصيحة ... كان يقول أن التجدد والتغيير من الرجال مهم ...

والده كان هكذا . مثله .. أخوه أيضا . كان مثله .. لكن هاجر ..

هاجر مع صديق ... سمعنا ، بعدها ، أنه تزوجه ... أمهما ماتت مقهورة .. لماذا ؟ لا أحد يعرف .. كانت تريد أحفادا ...

كان يقول لا بد من ضخ المجموعة بدماء جديدة ... ويجب أن نمتع كل الناس معنا ... وأن يكون لنا منظومة جاذبة .. ولا يجب أن نكون وحدنا .. فقط .. الشواذ .. يقول ، ولست أنا .. ليصبح الأمر مشاعا ، ومألوفا ، ولا نخجل بعد ذلك من أنفسنا ... وربما تعترف به الدولة ذات يوم ، ويصبح قانونا .. هذا كلامه .. وليس كلامي ..

قانطا كان الضابط ، شبه مذهول ...

لأن يوجد أمثالنا في كل موقع .. في كل مكـــان .. رتـب كبـيرة ، وصغيرة .. أساتذة .. أطباء .. تجار .. وطلبة .. عمال .. وفنـــانون .. و ...

وصمت ليأخذ أنفاسه المتواترة لقنوط الضابط الصارم الصائح .

- أكمل .. كيف توقعون بالأعضاء الجدد .. ؟!

- حاضر .. سأقول .. لكن ارحمني .. أنا لم أقتل ـــ الرجال الذيـن تحرق الشهوة أجسامهم موجودون بكثرة في وسائل المواصـــلات العامة .. المزحومة .. يتحرشون بالنســـاء .. يحتكـون بـهن ، بقطارات الضواحي والأتوبيسات .. يفعلون أشياء غير معقولـة .. يلصق الواحد منهم ، نفسه بظهر المرأة .. هكذا .. بإذلال .. نعـم .. يذل الواحد منهم " روحه " ..

قاطعة الضابط باشمئزاز متهكم ..

- وأنتم تريدون " روحه " ؟! . وأنتم أولي .. ؟! .. أكمل ..

توقف المتحدث مرتجفا .. والضابط يقول كمن يحدث نفسه .

- لم أبذل جهدا من قبل مثلما بذلت في هذه القضية القـــذرة هـا .. أكمل ..

- .. حاضر .. حاضر .. لكن أرجوك أبعدني عـــن الموضـــوع .. فأنا مضروب بهذا المرض منذ الصغر .. عندما كنــت طفــلا .. كيف نعثر علي العضو الجديد . ونستدرجه .. نوقع به .. أقـــول لسعادتك .. يتوقف الواحد منا بوقت تحرش الراكب بظهر المـــرأة .. نراه .. نراقبه .. هنا يبدأ دورنا ... نجاوره الوقوف .. فـــي الزحمة .. وبيد الواحد منا كتاب .. أو كيس .. أو جريدة .. ويـده مع ذراعه بشكل طبيعي .. موازية لبنطلون الزبـــون .. يتحـــرك الإصبع الإبهام بخفة .. وحذر شديد .. ويلامس طرف الجريـدة ، أو الكتاب ، أو الكيس .. لكن في الحقيقـــــة . يلامـــس بنطلـــون الزبون .. فإذا استجاب " الطـــرف " .. ونفـــر .. قـــام .. عـــاد الإصبع للحركة والتلامس .. بحرية .. وشجاعة أكثر .. وإن لـــم يستجب " الطرف " .. ونفر صاحبه ، وتنبه .. يتراجع الإصبـــــع .. ويقف صاحبه ثابتا .. وكأن ما حدث كان عفوا .. بـــلا قصـــد ... لكن في أغلب الأوقات .. يســـتجيب " الطـــرف " .. عندهـــا نعرف أن الزبون غاو .. وأنه يعاني الكبت والحرمان .. ويرغب في ذلك .. فتقبض اليد " كلها " علـــي الطـــرف .... وهكـــذا .. نصاحبه .. نأخذه .. يأخذنا .... نريحه .. يريحنا .. نعطيه

الحنان .. والعطف .. ويصبح واحدا منا .. لا يستطيع أن يغادرنـا .. ويمكنه أن يأتي بآخرين ..

... قال الضابط ..

- والأطفال .. كيف تستدرجونهم ... ؟

- صدقني .. لا أحب التعامل مع الأطفال .. كنت طفلا ذات يـوم .. وغرر بي رجل ... الأطفال كلهم مشاكل .. مرة ، .. زمــان .. اعتدي رجل علي طفل .. وعندما أخبر الولد أهله .. ذهبوا لبيـت الرجل وقتلوه ... ومرة .. أيضا .. هتك رجل جســم طفـل .. وكان مصيره .. قطع عضوه ....

الأطفال لا يحفظون الأسرار ..

أيضا .. الكبار يتكلمون .. لكن بالحركات التى يفهمها الآخــرون ... ربما تفكر سعادتك .. أن كل هؤلاء ، شرفاء .. أبدا ... كلهم أدنيــاء .. أرباب سوابق .. وأنجاس .. وإلا ما عرضوا بالوقوف خلسة خلف ظهور النسوان . معرضين .. حتما .. لضرب الأحذية والشباشــب .. وسط ركاب يساعدون بالضرب والبصق ..

سمير يقول .. لا بد أن ننقذ الناس .. نوفر لهم الراحة مــن عوامـل الحرمان والكبت ... هو الذي كان يقول ...

كان يحكي بتلقائية مفرطة ، اطمئنان القاعد علي كرسي اعـــتراف ، يرجو المغفرة والتطهر والخلاص ، بالموت ، أو الغفران ..
يحكي وكأن الموضوع مألوف يعرفه كل الناس . ويمارسونه .. كـأن الضابط ، الدائر ، بإنصات ، يعرفه ، ويـــواري شـعوره بـالخزى الخجلان ، بالدوران .. والمتحدث يقول ..

- ... الأطفال .. سعادتك كلهم مشاكل ... تصور لو ابنك ...

لم يكمل ، بوغت بصفعة قوية أخرست لسانه .. صفعة من يد حمّلـت بالذعر والغضب تلطم قفاه .. صفعة أناخت رأس حلـــم بـالمغفرة ، فانتفض البدن مروعا ، مرتعدا ، يسّـقط خـائرا . يجـاور إخوانـه المتكومين .. منكسي الأدمغة ، زائغة الأعين .. يضغطهم الصمـــت الرهيب ، غير آبهين لبول كان يتعفن ويغمر ثيابهم ...
فتح الضابط الباب ، دخل المساعد ، كمن كان ينتظر خلفه .
جاء بآخر تثاؤبة أطبق عليها فم وجهه المتجهم الكسول . وجه انتظـر طويلا ، بالغرفة المجاورة ، أو خلف الباب ، انتهاء مهزلة المأســوف علي رجولتهم المهدرة ، انتظر باحتماله القســري للبقـاء سـهرانا ، متجاوزا نوبة عمله الزائدة ، يقاوم الليل الذي تطاول بالحنق ، جـــاء كاتما غيظه .

- هؤلاء الجراثيم .. يوضعوا في غرفة حبس وحدهم ..

قال الضابط ، وكان يمضي مغادرا ، كالمنسلخ من جو المكتب المقبض ، المشبع برائحة البول ..

بوقت تفجر صوت المساعد ..

- قوموا .. قوموا ..

ولم يكن أحدهم بقادر علي القيام ..

استدعي المساعد رجلين قويين من زملاء القسم الليليين ، بدءوا يسحبون أكوام الأبدان المتراخية لحد الكمون في الاستسلام .. من الأذرع ، والسيقان ، وأحواض البنطلونات . سحلوهم .. كفئران دائخة تنفق ..

***

٦ قيام السيد من نومه

الرجل المبجل يقوم من نومه .. الرجل الذي ترتجف لصحوه جـدران البيت الفاخر ، والرؤوس العائشة في ظله الوثير ، المغلف بالصرامـة ، والجهامة . يقوم من نومه ..

الرجل الذي يجئ له الحلاق ، كل صباح . وينتظر دخوله الحمام بيـن يدي خدامه ، حامل البشكير ، مع التوقير ، ينتظر خـروج سـيده ، حيث يتلقي جسده العاري ... يلفه .. ينشفه .. يدثره ..

يقعد بغرفة نومه ، جاثما علي الأنفاس .. يحني للحلاق قفاه .. يصبـغ له شعره ، وشاربه المفتول . ينعم له ذقنه ...

المتصابي قام من نومه . فالصخب اليومي المكتوم يقوم .. " بابا قـام من نومه " .. تنزاح الستائر البيضاء الفخمة . تكشف عن نوافذ ملونـة الزجاج .. يطل النهار .. مفروشا علي أشجار الحديقة . يغمر البيـت ، يفح بروائح الفل ، والياسمين ، مع زقزقة العصـافير ، وخضـرة مشعة ، تحتضن مبني الفيلا ..

قام من نومه ، السيد ...

سائس الجراج السفلي يركض ، يحضر السيارات . بـــواب المدخـــل الرئيسي ، يهرع بكنس الأرض ، مسح حديد الباب . وخولي الحديقـــة ، ينهي ري الأرض الخضراء ، تقليـــم الأشـــجار ، قطـــف بعـــض الأزهار .

فلتصحو الدنيا . فالسيد قام ..

جلس بصدر مائدة الطعام .. حوله أبناؤه الكبار .. يقدمـــون تحيـــات الصباح باحتشام وقور .. يتأهبون لتناول الفطور ، بثياب الخروج ..

خليل . الابن الأكبر ، المـــهندس المرمـــوق ، وزوجتـــه المهندســـة المرموقة علي يمين المائدة ، والوالد ..

عزيز ، الابن الثاني ، الطبيب المعروف ، وزوجته الطبيبة المعروفـــة ، علي يسار المائدة ، والوالد ..

والأم ، مفرطة الطيبة ، شبه الساذجة والصمت ، تتصـــــدر الناحيـــة الأخرى من المائدة ، تجاورها الابنة رشـــا ، أصغرهـــم ، مهندســـة كمبيوتر .

حين يبدأ في أول رشفة من كوب اللبن الصباحي المألوف ، يرفعـــون أكوابهم . يرتشفون ..

ينزل كوبه .. ينزلون أكوابهم .. يتناولون فطوره .. يفعلون ..

طقوس (فطورية) مبكرة ، محفوفة بالسأم الدفين الممجوج والسخط القابع بصدور البعض ..

ليس بمقدور أحدهم التمرد عليها ، أو التنفس بها ، هو الأمر ، الناهي ، هو الصارف ، الصارم ، بيده مفاتيح خزائن البؤس والتعاسة ، الفرح ، والسعادة ..

والزوجة ، الأم ، المطيعة الأمينة ، حارس الإقامة الصموت ، مكبوسة بالرضى الخانع ، والقنوع ..

حين ينتهي الفطور . ينحنون بأدب أمامه .. و ... يهرعون كهاربين ، نحو باب الخروج ..

خليل وزوجته الهيفاء ، ابنة أكابر التجار بوسط المدينة ، يركب سيارته وهي بجانبه .. يتوجهان لشركتهما ..

وفي الأثر ، علي الفور ، سيارة عزيز ، تنطلق ، وبجانبه زوجته سليلة عائلة الأطباء المشهورين .. يذهبان إلى المستشفي الخاص بهما.

وأخيرا ، الآنسة رشا .. تركب سيارتها ، تتهادى إلي مكتبها الفاخر بوسط البلد ..

رشا ذات الثوب الفضفاض ، و (إيشارب) الرأس الغامق ، تتوقـــف بأحد الشوارع الجانبية ، الخاوية من المارة . تخلع ثوبـــها الواســـع ، وتطلق للهواء ، والعيون النهمة ، شعرها الناعم ، يهفهف . وتبـــاعد بين الساقين ، بالبنطلون (الجينز الأستيكي) الماسك علي الردفيـــن ، والـــ (بلوز) الضاغط علي الخصر النحيل ، مفتوح الصدر ليبـــدو شق القمر الناصع .

القائم من نومه ، خرج ، سطع ، في ممشى الحديقة ..

انحني سائس الجراج . وانحني الخولي بصحبة ورد . انحني البـــواب . والخادم حامل الحقيبة انحني .. وانحني سائقه الخاص ، حين دخـــل السيارة ..

انحنوا للرهبة المشعة ، وهم يكتمون الابتسام الساخر .. يروق ، لـــه ، مشهد الانحناء ، تدلي الرؤوس علي الصدور ، والظهور مقوسة ..

يري هو ، في الانحناء فوائد ، قوة .. تساعد علي التليـــن ، وتمـــرن المرء ، وتقوية لفقرات الظهر ..

والذين ينحنون ، يرون ، في الانحناء واجبا ، عملا مفروضا لسيدهم المبجل ، المتأنق ، المتصابي . مانح رواتب الشهر بسخاء ، ســـخاء تراه الزوجة المغتاظة ــ في صمت ــ إفراطا ..

عطاؤه للرجال ، أكثر مما يستحقون ..

ويقول ، هو ، أنهم مساكين ، يعولون ..
وتفكر ، هي ، بغيظها المكظوم ، لاهب القلب ، أنهم يتعمدون الإفراط في الانحناء من أجل إرضائه ، وإدخال السرور علي قلبه .. دغدغة مشاعر التي تجهل – رغم مرور السنين معه – حقيقتها ، ولا أحد ، بالبيت ، يعرف مخبوء صدره .. يبتاع الانحناء بالنقود ..
عسكري المرور الواقف بتقاطع الشارع الموازي للفيلا ، يتقوس بدنه قليلا ، عندما يري سيارته قادمة ..
بائع الجرائد ، علي ناصية الشارع ، يعد له الجرائد ، يتأهب بانحناء بدن يوازي إطارات العربة ..
كناسي الشوارع المحيطة ، يتعمدون التواجد بوقت مروره ، يقدمون الاحترامات الانحنائية ، وهو يتجاوزهم ..
رجال البساطة ، وانتظار مواعيد وجوب توزيع الهبات . اعتادوا علي الانحناء بظهورهم المنخورة بالتعب ، فـ (البك) يجئ ، يمر ، سوف يراهم ، سوف يهبهم ، يبعثها إليهم ، النقود – أحيانا – علي شكل رواتب شهرية . ولحم ذبائح يقوم بنحرها قصاب بساحة الحديقة في مطلع كل شهر ، فضلا عن المواسم والأعياد ، وحين يصل لمجمع معرض السيارات الفاخر ، الكائن بأضخم عمائر بحر ميامي. يصطف الموظفون والعمال لاستقبال كيانه الشريف ، وجهه النبيل ..

بالوسط ، يصطف رجال معـــرض الســـيارات ، ويصطـــف رجـــال السوبر ماركت يمين المعرض ، علي يمينه .
يصطف رجال معرض قطع غيار السيارات ، الذي بيسار المعـــرض ، علي يساره .. ينحنون صفا ، متوافقا مع مروره الكريم ..
انحناء يبهج روحه بنشوة ومسرة .. تشعره أن عمارته تلك الضخمـــة ، هي الأخرى ، تشاطرهم الانحناء ، إكراما لقدومه .
حين احتواه مكتبه الضخم الأنيق . انحني أحد موظفيه يقول :
- هناك رجل بالخارج ينتظر سعادتك ..
كان الرجل الذي انتظر قد جاء خلف الموظف ، حاملا ورقة بيده .
بوغت البك ، والموظف لاقتحامه المكان ..
ارتبك الموظف ، وأربد وجه البك للحظة وقوف القادم بلا انحناء ..
يتقن البك أن الرجل غريب ، لم يعرف بعد بأهمية البك الثري الواقف أمامه .. أشار بإصبع فغادره الموظف .. وقال للقادم :
- أهلا ... سألت عني .. ؟
قال الشاب بأدب ، واقتضاب ..
- أنت مطلوب في النيابة ..
أضجره لفظ (أنت) .. وأفزعته كلمة (نيابة) .

- نيابة .. ؟ !

- .. نعم .. نيابة ..

أول ما طاف برأسه ، عياله ، زوجته ، كل المعارف ، والمنحنـون .. توجس .. شئ بداخله لم يدرك كنهه أقلقه . شئ بقاع الذهن ، بعيـد .. النيابة ؟

لا ضرائب عليه أو حجوزات . متصالح هو دوما مـــع الحكومـــة .. أرضيات الجمارك تسدد أولا بأول .. لا شئ هناك يســـتوجب طلبـــه للنيابة .. أبناؤه بعيدون عن أية مشاكل .. قاطع القادم تفكيره ..

- تسمح . تتفضل معي .

- معك .. ؟ الآن .. ؟ ولماذا .. ؟

- هناك سوف تعرف ..

- ... ممكن أذهب وحدي .. ؟ .. بدونك ؟

- ... ممكن تذهب وحدك .. بدوني !

***

شئ مبهم طفح من قاعة ، ناوشه . شئ مخبوء ، مترسب ، يخصـــه وحده ــ ذاته ــ ولا يمكن لأحد معرفته سوي بعض الذين يحملـــون نفس السر ..

نعم ، عرف بأن أحدهم قتل ، وآخر انتحر .. قرأ تلك الحوادث في الصحف . رجال يعرفهم . لكن الحوادث بعيدة عنه ، لكنها طافت الآن برأسه وهو جالس أمام مكتب النائب ، طافت وأرعبت قلبه ، وتجلي الرعب علي ملامحه ..

- السيد فتحي البطوطي .. رجل أعمال .. ؟

اسمه مدون أمام النائب . نطق به وصمت .

اسم كان محفوفا بالوقار . معروفا لدي رجال الجمارك ، وكبار تجار السيارات . وموردي قطع غيار السيارات ، معلوما لأصحاب شركات الأغذية ، مكتوبا علي اللافتات بالطول والعرض ، وعلي بعض الإعلانات في الشوارع الكبرى ، ومنورا فوق واجهات معارضه ..

- نعم ... هو اسمي ..

سأل النائب بهدوء :

- تعرف شخصا باسم سمير الصياد .. ؟

انكفأ علي نفسه . ابتلع ريقه الغاص بالمباغتة .. تفتحت ثقوب رأسه لمجرد سماع الاسم .. تحققت هواجس الرعب التى حاول محوها من نفسه منذ حوصر بهذا المكان ، باعتبار معرفته بذلك الـ (سمير)

سرا لا يمكن أن يعرفه أحد . صمت محاولا ، للحظـــة ، اســتجماع بعض الردود .. لكن ملامحه التى تبدلت كشفت عن لواعــج روحــه المرتعبة ، أفقدته النطق . فقال النائب

- طبعا تعرفه .. ؟

نطق البك ، محاولا نفي معرفته الوثيقة به ..

- .. زبون .. مجرد زبون .. اشترى مني سيارة مستعملة ..

- ألم يكن بينكما علاقة .. ؟

كان النائب يسأل . مع ثقته من وجود تلك العلاقة الوطيدة التـــى وضحت آثارها المرعبة ، والمحملة بالسهوم الصـــامت علـــي وجـــه البك. قال النائب :

- أ تنكر أنه كان بينكما علاقة ؟

كان سرا . وكانوا أصدقاء سريين . هواياتهم لهم ، محصـــورة فيمـــا بينهم . تمارس في الكتمان ..

حفلاتهم تقام بين الجدران التى من المفترض أن تكون آمنة . وربمـــا تقام ، كثيرا في الظلام ..

أخرج منديله ، وبدأ يجفف عرقه بخزي كان يخزه . ولم ينطق ..

كيف يكون النطق ، والأبناء يخايلون الدماغ ؟

يعتلون اللسان ، يجيئون ، يتجسدون ، ويركبون التلافيف .. يتقلونـــها .. ولو اطلع أحدهم علي سره المشين .. ؟

كيف ينطق ؟

ابتلعه ريقه الجاف ، عرقه المتقصد ، بلل ياقة قميصه المنشاة ، ربـلط عنقه الخانق ــ مهدور الأناقة ــ يحاول إسباغ التماسك علي الموقـف بالجلد المزعزع .. قال :

- أعرفه ....

- مع أنك قلت أنه اشتري منك عربة مستعملة فقط ؟! تكذب ؟ مــع أن اسمك وعنوانك ، وتليفونك الخاص كله مكتــوب هنــا ، فــي أجندة خاصة بالمجني عليه ؟!

كان جسده يتهدل ، رويدا ، متخليا تماما عن انتفاشه ، وتألقــه الــذي جاء به منذ قليل . صار مبلولا ، كمن افتضح سره وأصبح مشــاعا ، ولا فائدة ترجي من الإنكار ، قال :

- كنت أعطف عليه ..

- عطف من أي نوع ؟

المواراة الكلامية بسؤال النائب ، نكست الرأس ، تدلي ..قال ..

- عطف .. عادي .. كان غلبانا . وحيدا .. كنت أعطف عليه ..

تخابث النائب :

- و .. طبعا . كان هو يعطف عليك .. ؟

كان الخزي يواصل سريانه لينكس الرأس أكثر .. قال النائب :

- متي زرته آخر مرة ؟

- أنا لم أزره أبدا في بيته ، ولا أعرف بأي شارع في محرم بك

- كيف عرفت أنه في محرم بك ، وأنت لم تزره أبدا ؟

- رقم تليفونه ، مفتاحه ٤٩ .. يعني محرم بك . وسط البلد .

- وأين كنت تلتقي به ؟

الخزى يموج ، يقبض القلب .. مات الشاب ، غادر الدنيـــا ، مخلفـــا لإخوانه الفضيحة .. الأرعن الذي لم يكن يرتوي أبدا ، المفتوح علـــي العالم ، عاشق كل الرجال ، حتى العابرين .

- أنا وجهت لك سؤالا .. أين كنتما تتقابلان ..؟

- ... في .. فندق .. أو .. في كبائن البحر ....

- .. ولم تزره ، ولا مرة ، في بيته ؟!

مطبق عليه الصمت ، مرتخ الجفنين كنائم .. يعيش حلما .. والكـــاتب إلى جوار النائب ، يدون الأقوال ..

- ..... لا أعرف ... لا أعرف بيته ...

- معني كلامك أنك لم تشارك في القتل ؟

كانت أجفانه المرتخية تختلج قليلا مع شفته السفلي .. قال ..

- الموت أفضل من تلك الفضيحة ....

وابتلع لعابا تدلي من فمه ..

قال النائب كمن يفرغ من الأمر ..

- عموما . نحن أرسلنا في طلب أبنائك . سوف يجيئـــون حـــالا .. ربما يعرفون أكثر مما تعرف ....

صعق .. بوغت .. انخرس ..

" آه .. لو يعلمون " ..

تهدلت أخاديد وجه العرق ، المخبـــوء وراء المســـاحيق العطريـــة . انطوي علي المقعد كفأر مزنوق مصاب بالروع .. ملجوم يتوسل ..

- أرجوك .. أرجوك .. (أبوس ايدك) . دعك من عيالي ، افعـــل بي ما تشاء هنا .. دعك من عيالي .. يكفيني تحمـــل الفضيحـــة وحدي ..

قال النائب شبه مندهش :

- خائف من عيالك ؟ أو خائف عليهم منك ؟ هم ليسوا مثلـــك إذن ؟ .. ربما يعترفون أنك زرت القتيل منذ أيام ؟!

- صدقني .. أرجوك . لــم أزره . وعيـالي لا يعرفـون شـيئا ، أرجوك .

- إذن ، من الذي قتله ، ومزق جثته ، ووضع له الخازوق ؟

- .. لا أعرف .. أرجوك ..

- ربما عيالك يعرفون . أكيد . أحدهم عرف بـأنك هكـذا عفـن ، فتخلص من الشاب ، بالموت ..

مدركا ، كان ، لمحاولات النائب التهديدية الضاغطة ؛ فقال برعبه :

- .. هل .. يمكنهم ، عيالي ، كل الشواذ الذين في البلد ؟ أرجوك

لاحت ابتسامة تهكم علي وجه النائب ..

- أنت إذن شاذ قديم ؟ إجابة معقولة ، جدا ..

- .. أنا أعرف . بعضهم . فقط ..

- وعيالك .. يعرفون؟ ....

- ... يا بك .. أرجوك ...

- نحن أيضا تعرفنا علي بعضهم ، وسوف نأتي بهم جميعا ومعـهم عائلاتهم ..

كان الكاتب قد توقف عن التدوين ، منتظرا حوارا آخر يفيد التحقيق ، .. انفرطت دموع البك كطفل مرعوب .. ما زال يتوسل ..

- أرجوك .. دعك من عيالي .. أبوس إيدك ..

- أتخاف علي عيالك من السمعة السيئة ؟ . مع أن بعضكم يخــرف ويقول ، أنها حرية شخصية ؟ . حق من حقوق الإنسان ، مســألة عادية .. نحن أيضا نريد الحق ..

***

كان هناك ، بالشارع ، وأمام مبني النيابة العمومي ، قـــد اصطفـت ألوان من السيارات التى تبرق بعين الشمس ، إلــي جــوار الرجــال الأكثر أناقة ، وانبعاجــا ، واقفــون ، يحيطــون أولاده وزوجتــه ، والدهشة التى ألجمت ألسنتهم ، يمكرون في حقيقة أمـــره الغريــب ، والغامض ، وسبب استدعائه أمام النائب ...

أمس ، حين ذهب ، وغاب نهاره ، ولم يعد إلى المعرض ، اعــترى القلق رجاله ، وقالوا فيما بينهم ، ربما اختفي بأحد مشاويره الخاصـــة .. وانتظروا مجيئه في الصباح .. لكن .. لم يأت .. هـــاتفوا البيــت يسألون عنه ..

في البيت ، لم يندهشوا كثيرا ، يعلمون ، أنـــه يقضـــي ــ أحيانــا ــ بعض لياليه بالخارج ، بالفنادق . مع رجال أعمال مثله ، أو مســافرا إلي الجمارك .. أو ...

لكن حين علموا ، بأن بالمسألة نيابة ، جاءوا بالهلع ، موزعين القلق المبهم علي المعارف ، الكبراء وجاءوا بأهم محام بالمدينة ، جاءوا بالوجوم ، والسكون المتخيل ..

ماذا حدث ؟ ما الذي يمكن أن يحدث أو يصدر عن رجلهم المهم ، الوقور ، والمحسن ، الثري ، رب العوائل ، والعائلات ؟

ربما يسأل بالداخل .

ربما يهان هناك .

وقد تأخر ...

ربما يعذب بالداخل . يعتصرونه ..

لكنهم قادرون ــ عياله ، ورجاله ــ علي تعديل كل المسارات الخاطئة ، بالفلوس ، مع يقينهم بأنه معتدل ، وشريف ، ونظيف اليد ، يستحيل أن يرتكب خطأ ، يحاسب عليه القانون .

لا بد جالس هو الآن ، بالداخل ، مع أحد أصدقائه القضاة ، أو رجال الأمن ، أو وكلاء النيابة ، يشرب القهوة ، ناسيا أهله ، وناسه الذين زاحموا الشارع العمومي أمام المبني ، وربما عطلوا المرور بتواجدهم المدهش ، لافت النظر ، رغم كل هذا ..

كان العسكر ــ حراس البوابة ــ يمنعونهم من الدخول ، ليس لتعاليهم المفرط ، أو لتجهمهم المتأفف . أو لتأنقهم المتغطرس ، والناتج عــن العصبية لعدم فهم ما يجري . ولكــن لعــودة محاميــهم الصــامت ، المندهش ، والذي استطاع الدخول ، ومنع من دخول غرفة التحقيـــق لمعرفة ما حدث وراء بابها الموصد ، وبأمر النائب .

النائب الذي رفض ــ بوازع من داخلــه ، ومجــهول ــ دخــول أي إنسان آخر ، سواه ، والكاتب ، والرجل المهم .. !

الأمر الذي جعل المحامي يعود إليهم يجرجر الدهشــــة والغضــب ، وليطول انتظارهم تحت الشمس ، والصمت ..

أمر النائب بالإفراج عنه ..

وقبل أن يلملم البك شتاته ، كرامته المــــهدرة ، عرقــه المســفوح ، والمخلوط بالدموع . راودته رغبة شكر عارمة ، رغبة في أن ينحنــي ، يجثو أمام النائب ، ليقبل قدميه ، بحركة مشفوعة بلسان يلهج كتـائب ، كمجرم ، أنقذ ، علي يد إنسان ، نائب كان يبتعد . مبغوتا ، ومحيــلا بينه ، وبين رغبته ...

***

وحده . خرج إلي الشارع ، متهدل البدن ، يحمـــل صمتـــه الثقيـــل ، والوهن الفاضح ..

كانوا حول كيانه المصمت ، محتمل أسئلة الذين جـــاءوا ليعـــاونوه ، محاولين معرفة الحقيقة ، لا فظين كلاما عن الحكومة ، والإهانــــة ، وكل ما يتعلق بوالد وقور . حط عليه الصمت المشدوه .

لم ينطق بكلمة ..

حتى عندما أوصلوه إلي البيت ، وسألوه ، لم ينطق ..

فقط . طلب أن ينام ..

ونام بصمته ..

وفي الصباح ، حين أراد أن يقوم من نومه ..

لم يقدر ، فقد شل نصفه الأيمن ...

***



٧ ستائر الخوف

سيطر اليأس النافر على عبد الجواد . أوعز إليه برغبته في التخلـــي عن متابعة القضية ، ليوفر علي روحه عناء شعور البغض المستحكم الذي أصابه .. وأدي به إلي التفكير في الاســـتقالة ، الإنعتـاق مـن قضية ولدت بصدره الشكوك غير المحتملة ، والسيئة حيـال أغلـب الناس ..

حتى المعارف منهم ، والمقربين .. والأشد قربا له ..

شك طال ذاته ، جسمه ، ذلك الذي أصبح يحرص عليه ، ويحـترس منه ، وينطوي بداخله كثيرا ، وبشكل أكمل دورة اندهاش زوجته ..

حتى لم يحتمل وجود طفليه علي حجره ، مثلما كان يفعل كلمـا راق له اللعب معهما .

امتنع عن احتضان أي صديق ، أو تقبيله مهما كانت صلة القربـى — لاغيا — بشعور الشك — ذلك الشـعور بالشـوق الحميـم المتـأصل بروحه ، مكتفيا بالمصافحة ..

مصافحة خفيفة ، وفاترة ، مجرد تلامس أيدي .. كانت تشعر الآخـر بالاستخفاف ، والتأفف ، والتغير الغريب في طبع شخص عبد الجواد

والمعروف بكرم الخلق .. سحب يده بسرعة ، يعتبرها الآخر إهانـة ، مبعثها التكبر والزهو المستجد عليه . لكـــن ســحب اليـد الفـوري والمتعمد ، لقطع شك ربما يراود الآخر .. شك ممجـــوج ، لعيـن ، استحوذ علي تصرفاته ، إحساســه بفكـرة الاســتقالة ، واســتخفاف الزملاء به لو أقدم وفعل ، فهي اعتراف بالفشل ، عدم القـدرة علـي إيجاد القاتل الحر الطليق ، المتواري حتى الآن ، علي الرغـــم مــن التحريات ، والتحقيقات مع عشرات الأشخاص المشتبه فيهم ..

قاتل تتفاقم رغبة عبد الجواد لرؤيته ، للتعرف عليه . لأن شيئا بداخله يحدثه ، بأن القاتل أصبح ضمن الشرفاء الذين كانوا يحيرون فكره .. نعم ، إيجاد القاتل أصبح مهمته المبتغاة ، والتي سيتحقق بها انتصـــاره علي الشك ..

بوده الانتهاء من الأسماء المتبقية بالأجندة ..

بعض الأسماء بدأت تُنسي ، شطبت ، محاها بقلمه ..

كل الذين تساقطوا ، أثبتت الأدلة والبراهين عدم ارتكابهم للجريمـة ..

كلهم شواذ خانعون ، لا يمكنهم قتل بعوضة ، ...

كان قاعدا وحده ، متراخيا .. يقلب أوراق الأجندة ..

خطر برأسه أن يراجع ما راجعه أكثر من مرة ..

تلك الأرقام المسجلة علي هاتف القتيل المحمول . مثلما فعل وفتش من قبل ..

نفس الأسماء والأرقام ، تتوالي علي الشاشة الصغيرة ..

أسماء كثيرة ، تترى ، تجري ، تم معها التحقيق ، وأخري دلت التحريات علي انتهائها بالموت ، أو الهجرة ..

يراجع . قارئا اسما بعد آخر . رقما بعد آخر .. حتى إذا قارب النهاية ، ازداد رسوخا ، استرخاء ، كالخمول المقرون باليأس ولم يكن يركز - ولو لمرة واحدة - علي آخر الأسماء ، والأرقام .. نعم .. ولأول مرة إلي نهاية الأسماء ... الخاطر المباغت .. الوامض ، جدد تركيزه .. ليعيد الأسماء ، مرة أخري ، والأرقام ... الرقم الأول - بالتأكيد - آخر ما سجله القتيل .. رغم عدم يقينه من ذلك ، لكن راوده بعض السرور .. ربما ، أول الأسماء المسجلة تعتبر حديثة .. أسماء النهاية أقدم .. هنك رقم بدون اسم .. ربما مرتبط بيوم وقوع الجريمة .. ربما قبله .. ربما بعده .. حين طلب الرقم من هاتفه الشخصي ، توقع عدم الإجابة لأي مانع بالهاتف الآخر ، لكنه طلب الرقم ، وأصغي لصوت الرنين بالجانب الآخر ، مفكرا بما يجب أن يقول لو فتح الخط هنك ..

كان الخط مغلقا بالجانب الآخر ، فأعاد الطلب ، وانتظر . أضجره الرنين المتواصل والانتظار ..

أعاد الطلب معاندا ، ليس لأن الخط مغلق ، بل لشعوره بالتسلية والتسرية عن روحه ، بوقت تاق فيه لتغيير مسار أفكاره ..

إضفاء شئ من التوهان علي نفسه ، نسيان كونه ضابطا مكلفا بعمل أصبح ثقيلا ، يلفه السأم ..

استمرأ عملية الطلب .. يطلب . والآخر ، هناك ، يرن ..

كطفل خرج عن واجبه الروتيني .. ووجد لعبة يلعب بها بعيدا عن مراقبة عيون أهله والأصدقاء ..

قعد وحده يتسلى بضغط أزرار الهاتف اليدوي ..

فجأة .. رد الطرف الآخر ، ولم يخرج عبد الجواد – بعد – من شعوره بالطفولة المستغرقة ، وتحوله إلي رجل عادي ، مواطن كادح يحتمل مشاق الصبر والضجر ..

[نعم يا سيدي ..]

صوت ناعم لامرأة ريفية مطواعة ، وبجانب الصوت كان يسمع صخبا لأطفال صغار ، وجد نفسه يسأل

[الأفندي .. موجود ؟]

.. [أفندي . ؟! .. أفندي من يا سيدي ؟]

صوتها المدهوش يبدو فخورا بكلمة أفندي . قال :

[صاحبي .. زميلي ..]

[الأوسطي إبراهيم . أفندي يا سيدي ؟!]

[يعني الأفندية أحسن منه ؟!]

[لا سيدي .. لكن أفندي كبيرة يا سيدي . !]

[أين أجده ؟]

[أنت صاحبه في الشغل ؟]

[صاحبه ..]

[إبراهيم كل الناس أصحابه يا سيدي ..]

[أين هو ؟]

[لم يرجع من الشغل يا سيدي ..]

سمع صياح العيال يتشاجرون ..

[انتظر أسكت العيال يا سيدي ..]

وقد تحول ، بالفعل ، لرجل اعتيادي متعاطف مع صوت العيال .

[علي فكرة يا سيدي . كارت الشحن تبعك قرب ينتهي ، وراح تدفـــع فلوس كتير .. هو أنت صاحبه في الشغل ؟]

[قلت نعم .. صاحبه . أين يعمل هو الآن ؟]

[ترك السواقة ، ورجع لكا ر المعمار]

[... ترك البيت القديم ؟]

[أي بيت قديم يا سيدي ؟ هو بيت العامرية]

كاد يسأل عن العنوان ، لكنها واصلت الثرثرة ..

[ما انت أكيد عارفه .. أنت صاحبه ؟ وألا صاحب شغل ؟]

[صاحبه وصاحب شغل . وأريده ضروري ..]

[يا ليت يا سيدي تجد له شغل . من فترة طويلة والشغل متوقف، هــي الناس بطلت تبني عمارات يا سيدي ؟]

[هو نجار مسلح ؟ !]

[طبعا يا سيدي .. ما أنت عارف . نجار شاطر . يا سيدي]

أحس عبد الجواد بأنه اقترب من ذلك المجهول ، تطامن ..

ولا يدري كيف ومضت بذهنه أبراج سيدي جابر ، سموحة رغم بعــد المسافة بينها وبين العامرية . قال

[لا بد يجئ ، يقابلني .. قولي له . عند محطة سيدي جابر]

قالت فرحة ..

[أقول له يا سيدي .. ربنا يكرمك وتشف لــــه شــغلانة مســتديمة ، عارف حاله ؟ ، يصعب علي الكافر . يوم شغل وعشرة لا ..

مع أنه رجل طيب وابن حلال ويعرف ربنا ..]

[لا بد ينتظرني ، سأجد العمل المطلوب .. أين هو الآن ؟]

[وصل مشوار لحد العجمي ، زمانه راجع .. والنبي لا تنسى الشغل يا سيدي .. أقل له من يا سيدي ؟]

بين الصوت الريفي شبه المتوسل ، وتصايح العيال ، غمر عبد الجواد ذلك التعاطف الحميم، والتآلف الموجع ، الذي أرجعه لشعور الضابط ، بغتة ..

[قولي له صاحبك الحاج عبد المولي ..]

" نفد رصيدكم " ... سمعها وهو يغلق المحمول .. هربا من الضابط العائد بالغطرسة .. وسرح بذهنه ، معتمدا علي نفسه التى حامت منذ لحظات في أجواء العامرية ، داخل بيت به امرأة طيبة ، وأطفال ، لا يعلمون بما حدث من عائلهم .. مفكرا في الخازوق ، شاعرا باقتراب خطوة من الشخص الذي تاق لمعرفته ..

شخص أداة عمله ، كنجار مسلح ، شاكوش بيد خشبية مستطيلة . كالخازوق الذي كان مرشوقا بمؤخرة القتيل ..

غمرته المسرة الخفية ، التى تستحوذ علي المرء عند اقتراب رجل غريب وضائع ، تتعلق عليه بعض آماله ، موجودا بالذهن ، تربط

فيما بينهما علاقة شبه روحية أفرزت شعورا بعيدا بصداقة مبتـــورة .

حان وقت وصلها .

غريب رسم له كثيرا . ملامح وجه ، شكل جسم ، طريقـــة كـــلام .

تكوين كحامل لرجل سوي . قوي ..

رجل سوف يحقق كل التوقعات الموسومة بالهزائم ..

يحل تعقيدات روحه ، يضخ فيه ثقة كانت تساقط ، تطأهـــا العيـــون المرتابة ..

ذلك الشعور ، خامر عبد الجواد ، جعله يتخلى عن الضابط المـــراوغ الكامن داخله ..

تجاهل ، برغبة عارمة ، انتسابه للحكومة ، ولو لفترة سريان شـــعوره بالمواطن العادي ، وانتحاله شخصية رجل يتوجب عليه القيام بمهامـــه كمقاول بناء . أو مقاول هدد . أو مقاول أنفار .

وليذهب وحده إلى الموعد ..

مع توقعه بعدم حضور الرجل ، أو غيابه ، ضاربا بالموعد عـــرض البحر . وربما تقول له زوجته . وربما نسيت ، أو لم تقل له . ولـــن يأتي ، مؤكد ، لا يعرف أحدا باسم الحاج عب المولي . ربمـــا يشـــك في أمر المكالمة ويلوذ بالهرب ، وتعود معاناة البحث من جديد ..

أيعيد طلبه هاتفيا ؟

هل سيأتي ؟

أيذهب إليه ، ويقبض عليه أمام ناسه ؟

فقد تم التعرف عليه ، وانتهي الأمر ، وأصبح يحتل تفكيره ..

***

منذ وقوع الحادث ، وإبراهيم منطو علي روحه .. في ذاته .. انقطع عن التواجد بسوق الرجال . فقد رغبته في الجلوس بينهم ، لم يعد يختلط بأي أحد من أصحابه القائمين ، بالذات ، بحي العامرية . أصحاب تولتهم الدهشة ، والريبة لتغير حاله ، كمونه في صمت حائر ، مصحوب بشرود دماغ تلوح عليه مسحة استكانة ، ومسكنة كالأسى ، كمن يصارع ندما بأعماقه .. واضعا بذلك الصمت حاجزا من الجهامة المتعمدة ، حتى بينه وبين زوجته .

رفعت تلك الستارة الحاجزة التي نسجت من الصمت الرهيب . والتي تقام كلما سألته عما به . ليظهر بوجه مزمجر شديد الغضب ..

تغير مفاجئ وغريب ، كانت تحتمله بصبر مستغرب أسيان ، ضربه لعياله أحيانا ، وحنوه البالغ حد البكاء أحيانا أخري ، عندما يحتويهم في صدره بقوة الموشك علي مغادرة الدنيا ، مخلفا البيت بلا عائل .. وهم يبكون معه ، حين يوصيهم بأنفسهم وأمهم .

ثم يركض فجأة ، يذهب . ويعود بعد حين ، محمـــلا بـــأفخر أنـــواع الطعام غير المألوف لهم ..

تجيش الريبة بصدر الزوجة . من أين جاء بالنقود ؟

وهو عامل (اليومية) ، رزقه يوما بيوم ..

ربما ، كان ، يدخر نقود لأيام العيال القادمة والمجهولـــة ، ولتوقـــع غيابه ، أو رحيله ، أخرجها الآن .. نقود لم تكن تعلم بها معه ..

تغير لافت للنظر ، أوحي لبعض معارفه ، وجيرانه بأنه صار رجـــلا آخر ، مختلفا .. لم يعد يواظب علي حضور المغرب بالمسجد القريب ، أو صلاة العشاء ، لو جاء متأخرا مـــن عملـــه ، أو يلقـــي علـــي القاعدين ، بدهاليز الحارة ، السلام ..

إبراهيم شبه الملتحي . المصبوغ وجهه الوقور بشمس خلاء الدنيـــا ، كمن في ذاته ، تحول لشخص آخر . !!

شخص يتنائى بروحه .. يقضي جل وقته الفارغ في أمـــاكن بعيـــدة ، ولا يعود إلا مع الليل المتأخر المظلم ، كمن يبعد نفسه عـــن منـــاطق النور .. يهرب روحه الملوثة بالخطيئة عن مواقع النقـــاء والطـــهارة التى زرعها بنفسه وبيته سابقا .

إبراهيم الذي كان يبكر مع كل فجر ليصلي ، ويركض ، ســـعيا وراء رزقه ، لو كان مرتبطا بعمل .. يركض .. يتعلق بأية مواصلة عامة

ليلحق سوق الرجال مبكرا ، حيث يقتعـــدون الأرض ، مـــتزاحمين ، بميدان محطة مصر ..

ينتظرون طلاب العمال ، عارضين أنفسهم لأيـــة أعمـــال .. بنـــاء ، حمال ، سباك ، خلاط خرسانة ، نجار .. أي عمل يأتي بالنقود ..

إبراهيم يتوق الآن إلي الراحة .. يتوق لاكتمال نومه المؤرق . نومـــه الهارب فزعا ، الذي يراوغه وحده ، مع التوقعات الفجائية المقبضة .

يتوق لإعادة الحس برغباته الحياتية التى أخمدها القلق .. يحـــن إلـــي التجمع العائلي حول مائدة الطعام بنقاء سريرة .. لو تعود ليالي الحـــب والمضاجعة ، المتعاظمة ، راحة البال .

... كآبة ...كآبة زاحمت أركان البيت . تغلغلت في نفوس العيال .. ستائر الوحشة والجهامة ، والقتامة تكتنف الجميـــع عنـــد إحساســـهم بقدومه ..

تعتقد ، أم العيال ، بإن إبراهيم (معمول له عمل) بـــالنفور منـــهم ، والبعد عنهم ، والكراهية ..

إبراهيم قال في نفسه .." أذهب لموعد الحاج عبـــد المولـــي .. ذلـــك المقاول المزعوم ، وأيا كان ذلك الرجل المجهول .. أخرج من خوفك .. أخرج .. لن تظلـــل هاربا طوال العمر .. لو كان لك أجل سوف

تعاقب علي ما ارتكبت .. ولو مقدر لك الهرب ستظل ضائعا .. ولــو مقدر لك العمل ، سوف ، لكن فعلتك الشنيعة ستلاحق خطواتك ..

خوفك سيكبلك بالقيود وأنت صاعد علي المباني ، منك لذلك الخــلاء ، والسماء ، والرب ..

قيود ربما تأخذك وتسقط بعارك ، بذنبك الذي تحمله وحدك.أذهب ..

اترك نفسك لقدرك .. استقل أي شئ بأمل مكسور الجناح ..

لو قبض عليك . وسجنت ، ذلك حق عليك .. لا بد أن تؤديه ..

أنت قاتل .. قاتل .. عليك أن تواجه خوفك ..."

أفكار خالجت نفس ابراهيم ، عند ابلاغ زوجته له بموعد الحاج عبــد المولي ، مدركا أن عبد المولي ليس رجلا عاديا .. ربما يكون مقاولا بحق .. وربما مدسوس من قبل البوليس ..

اتصل برقم الحاج عبد المولي المسجل علي هاتفه .. تسمع لصــــوت رجل وقور ، يقول بابتهاج :

[مؤكد أنت الأوسطي ابراهيم .. ؟]

[هو أنا .. ابراهيم ..]

[أين أنت يا ابراهيم]

[.... أنا في الطريق ... دقائق وأكون عندك ..]

[أنا في انتظارك .]

[.. لن أغيب .. كيف سأعرفك ؟]

[أرتدي بنطلونا أسود . و(بلوفر) رمادي ، ونظارة سوداء ..]

[وأنا ستجدني بلحية خفيفة ، برأسي علامة صلاة ، وجــاكيت جلـد بني]

[أكيد سوف نتعارف ..]

[... أكيد ...]

لأول مرة ، منذ وقوع الجريمة ، يخامر إبراهيــم شـعور بالسـكينة المطمئنة.شعور معلق بين التوتر ، والتسليم الروحــي .. علــي أثـر صوت الرجل الذي يتسم بالود ، والوقار . صوت أزاح خوفه ..

كانا علي رصيف بالمحطة ، يبحث أحدهما عن الآخر .

***

وجه عبد المولي ليس بوجه مقاول ..

وجه إبراهيم ، لم يكن وجه قاتل ..

.. تقاربا ..

الأول شاب لم يتعد الثلاثين ، يتسم بالحيوية والرجولــة الصارمــة ..

والآخر شاب في الخامسة والثلاثين ، عليه مسحة من بقايا رجل جاد

يعتد بنفسه ، متجهم قليلا كخائف ، متوار خلف لحية مشذبة تقـــارب العنق ، عينان مزرورتان ، تفشيان ، بثبات حدقتيهما عنـــد مكنـــون القلب الخفاق ..

تصافحا ، قال عبد الجواد ..

- أنت إبراهيم الخشاب ..

إبراهيم ، استخلص النفس من قيود الخوف ، وقال ..

- أنا هو إبراهيم الخشاب .. وأنت ؟

منذ أمد ، ربما العمر كله ، لم يخامر عبد الجواد ذلك الشعور المريـح ، تأبط ذراع إبراهيم الذي انساق وراء راحة غريبة استشعرها ..

- ... أنا .. ؟

قاطعه إبراهيم ..

- ... ضابط ...

كانا يمشيان بخطو وئيد نحو خارج المحطة ، وعبد الجواد يقول ..

- أتعبت قلبي يا رجل .. انتظرك كثيرا ..

كصديقين ، تجاوزا باب المحطة ..

- أنا أيضا كنت أنتظرك . انتظرتك في بيتي ، وعلي المقهى ، وفي الشارع ، انتظرتك حتى في المسجد .. أنا أيضا طال انتظـاري .. وزهقت ...

- أنا أيضا زهقت من طول انتظاري وبحثي عنك ..

- لماذا لم تأت لبيتي لتقبض عليّ هناك ؟

- ربما أشفقت علي عيالك ، وربما لعدم تأكدي من أنك القاتل ..

- لكن عيالي سوف يعرفون . أكيد .

- قل لهم أي شئ آخر غير القتل ..

- سارق . مثلا ؟ وهم يعرفون طبعي الخير ؟

- ما دمت خيرا هكذا ، لماذا قتلت ، وسرقت ؟؟!

- لن أقول لك الشيطان . لأن الشيطان لا يعرفني ، ولا أعرفه ... كان يستحق القتل لأنه هو الشيطان .. يستحق اغتنام ماله ...

- اعتبرت ماله حلالا ؟

- ماذا بعد القتل ؟ ماذا يفعل واحد مثلي عاطل منذ عشرين يوما ؟

ركبا عربة الشرطة المنتظرة بساحة الانتظار ..

تجاورا بالمقعد الخلفي .. قال عبد الجواد ..

- ماذا فعلت .. احك .. احك .. أريد التفاصيل ..

من أجل خلاص الروح من شوائبها المذنبة . قال إبراهيم ..

•••

كعادتي كل يوم ، نزلت من بيتي ، بعـــد صـــلاة الفجـــر ، ركبـــت الأتوبيس . كل الشغل في بناء العمارات متوقفا أيامها ، ولا أعـــرف لماذا ..

يمكن بسبب سقوط بعض العمارات ، وعدم استخراج تصاريح البنـــاء ؟ .. وجئت إلي ميدان محطة مصر ، في سوق الرجال ..

كان لا بد أن أجئ مبكرا لأحجز مكانا متقدما فوق الرصيف الواســـع الموجود بين محطات الترام ، والأتوبيسات ، وبوابة السكة الحديـــد .. ورغم ذهابي مبكرا ، كنت أجد بعض العمال قاعدين بآلاتهم الصـغيرة .. مطارق .. أزاميل .. شواكيش .. كواريك .. فؤوس .. ققف ...

كأنهم كانوا نائمين ، هنا عـــي الرصيـــف . منتظريـــن المقـــاولين ، وأصحاب الأعمال .. يخبطون ، كالعادة ، بآلاتـــهم ، مـــع الصبـــاح الباكر ، والخالي من الناس ، بعضها ببعـــض ، ينبـــهون بأصواتـــها الرنانة علي وجودهم . كأنهم متسولون ..

قعدت علي حرف الرصيف ، في مكان متقدم ، أتابع النـــاس الذيـــن بدءوا يظهرون مع أول ظهور عربات الترام القادمة من أنحاء المدينة والأتوبيسات ..

أتابعهم بشغف . الزبائن القادمين نحونا ، والمارين أمامنـــا .. نخبــط لمن يريد عمالا .. كان أكثر الرجال يتزاحمون نحو أي زبون قـــادم ، عارضين أنفسهم للإيجار .. كنت أشعر بالزعل مـــن نفســي ، فـــلا أجري مثلهم . كنت أخجل .. كيف أفعل ؟ وهم يحوطـــون الزبـــون هكذا ، يحاصرونه .. كل واحد يعرض نفسه بصوته العالي ..

وعادة ما ينتهي الأمر بطلب رجل واحد ، أو رجليـــن ، أو ثلاثـــة .. وينفض باقي الرجال ، يعودون إلي أماكنهم من الرصيف ..

يراقبون الناس . الميدان الذي يمتلئ بالبشر .. ينتظرون زبونا آخر . مرات قليلة التى ذهبت فيها إلي ذلك السوق .. في أيام خلو اليد مـــن النقود ، وخلو المدينة من بناء العمارات ...

نعم .. معك .. هناك عمارات تبني ، وبها عمـــل . لكـــن المقـــاولين يشغلون بلدياتهم ومعارفهم .. والبيت محتاج لمصروف . كما تعرف .. بقيت قاعدا ... علي حرف الرصيف ...

نعم .. معي الشاكوش ، والمنشار .. رافعا رأس الشــاكوش ذو اليــد الخشب ، نصف المتر ، لأعلي ، كعلم ظــاهر للعيــون ، وبجــانبي المنشار واضح للمارة ...أنتظر اقتراب زبــون منــي .. أي واحــد يطلبني . ويؤجرني .. جنس بني آدم يشــتريني .. لمــاذا لا يقــترب واحد يشتريني .. لمدة يوم ، لمدة ساعة ؟

كانت الشمس تجئ من وراء البيوت ، وتمــلأ الميــدان ، وأنــا لــم أتزحزح من مكاني .. أبحلق في الناس . في الميــدان الــذي يشــبه المولد .. الرجال الذين بجواري يتناقصون . يؤجرهم ناس ويذهبون وأنا في مكاني .. لا يمكن عرض نفسي علي أحد ....

كان رابع يوم أجئ فيه إلي السوق ، وأعود بلا يومية ، كنت ألعن في بالي غزو العراق للكويت ..

نعم .. الحرب هي السبب ، أنزل من بيتي وأجئ ، وأقعد ، وأنتظــر .. والشمس تصب الصهد الساخن علي الميدان .. وكلما طلع النــهار أكثر ، يزداد زحام الناس أكثر ، ولا يأتي أحد لطلبــي ؛ مــع أنــهم يرون وجهي ، ومنشاري ، وشاكوشي الــذي كنــت أهــزه بيديــي المسنودة علي ركبتــــي ، ملوحا به كأنه بندول ساعة أمام جسدي

المتكوم كتمثال .. ولا أحد يعرف ماذا يحدث في داخل هذا التمثــال . حاجة ، وجوع ، وفكر ، وبيت ، وعيال ..

نعم .. كنت بمكاني ، والشمس تقوي ، مسلطة علي الميدان .. تبعث الصهد الحامي .. والرجال الذين تبقوا في السوق ، غطوا رؤوســـهم بالقفف ، وأكياس الأسمنت الفارغة ، بعضهم جلب أقفاص من باعـــة الخضار من السوق المجاورة ، وغطوا بها رؤوسهم .. وأنـــا ألــوح بشاكوشي .. يمكن الواحد يسلي نفسه حتى بتلويح يده .. أنا لا يمكــن أنا أشحذ قفصا ، أو أنحني علي كوم قمامة لأخذ ورقة لأغطي رأسـي .. أخجل .. لا أحب أن أذل نفسي .. أقتلها ولا أعرضـــها لــلإذلال المهين .. سيأتيني الرزق .. مؤكد .. طالما بقيت علي الرصيـــف .. مع أن الرزق ضنين .. لكي أقنع روحي بذلك ، لكن مسألة الـــرزق المنتظر ، طالت .. أصبحت وحشة ، مشكوك فيها .. أسبوع بحالـــة أنتظر الرزق ؟!

لعنت حظي السئ .. ربك يمتحن عبده المخلص .. لا تيأس .. ما بعد الضيق إلا الفرج .. وأنا في مكاني لألــوح بشاكوشـــي .. والشـــمس تتوسط السماء ، وذلك معناه اقتراب الظهر .. معناه عدم حضور

طلاب العمال .. معناه ضياع يوم آخر .عمال البنـــاء ، والخشـــابون يبدءون العمل في السابعة صباحا ..

قلت في بالي " أعمل أي شئ آخر حسب طلب الزبون الذي يمكـن أن يجئ .. أي شئ يأتي باليومية .. لا مانع ، حفار ، حمال ، سـمكري ، أو حتى مساعد لكهربائي .."

نزعت رأس الشاكوش الحديدية ، وخبأتها أسفل مني ، تحت حـرف الرصيف ، وأنمت بجوارها المنشار .. ورفعت يد الشاكوش ، مـــرة علي كتفي ، ومرة ألوح به ، موهما الذين سوف يأتون أنها حمالـــة قفف ، حمالة أجولة .. ألوح بها بحركة يأس وفراغ تنبـــه . الســاعة قاربت علي الواحدة .. يعني انقطاع طلاب العمال .

فكرت في القيام من السوق ، والعودة بيد وراء ويد قدام .. يا فرحـة العيال بالعودة والخيبة القوية ..

الرجال المتبقون . ما زالوا قاعدين ، يدقون بأدواتهم بيأس ورتابـــة ، ينتظرون .. بأمل .. ؟

قعدت مثلهم .. من يعرف . ربما يجئ الفرج للتمثال البـــائس .. فـــي هذا الوقت كان جامع " الغول " المقابل ، يـــؤذن لصـــلاة العصـــر .. (زعلت) جدا لعدم قيامي للصلاة . فلو ذهبت لأصلي ، ربما في وقـت صلاتي يجئ الزبون المنتظر . بقيت في مكاني أدعو الله أن يجئ من

يؤجرني ، في الوقت الذي هدّ الرجال التعــب والشــمس والجــوع ، وبدءوا يتراخون في قفاطينهم .. الكبار الضعفاء تمايلت رؤوســـهم ، وبدوا كالنائمين ، اليائسين .. ورأيته ...

كان يمر أمامي .. مرة .. ويذهب إلي البعيد ... ويلتفت لي ... ثــم جاء ، ومر .. مرة أخري ..

في أول الأمر ، لم أهتم .. ذهب لحد محطة الترام .

توقف ، والتفت ... وابتسم ... وعاد ... عاد ، . ومر من أمامي... كنت تنبهت إليه .. وفكرت ـــ وقد اعتدت التلويح بيـد الشــاكوش ـــ "ماذا يريد ؟" "ماذا فيّ حتى يلف حولي ؟ .. ربمــا تعجبــه لحيتــي المشذبة .. ؟ يمكن يكون معجب لطريقة قعدتي التى تشـــبه التمثــال البائس حامل العمود الملوح .."

كان نحيفا جدا ، وكان يبتسم ... ربما جسمي .. يتفرج علي جســمي القوي ، وخشونة شكلي ، وقعدتي علي الرصيف كمتسول ...

ابتسم لي بود ... ارتبت منه ... تذمرت من شكله ... مـــن ثيابــه (المحزقة)، وكنت ألوح بالعمود ، وبدون وعي ، وبنفـــس الطريقــة المألوفة ، وبعفو خاطر أنشغل به ، وأقلقني .. قليلا ...

كانت التلويحة ، تتم فيما بين ساقي ، وبحكم وضع مرفقــي عليــهما؛ فمر مرورا متعمدا . رفعت العمود ، وأنزلته .. ملوحا به ... منبــها له ، بأنني مستعد للقيام بأي عمل يطلبه ...

لكنه لم ينطق ... كان يبتسم فقط ... وتكـــبر ابتســامته الخليعــة ، الممجوجة .. يعلم الله بماذا كان يفكر وقتها .. ولم أقم لــه لأعــرض عليه عملي ...

ولا أعرف بعد طبيعة العمل الذي يريده ... كرامتي التى تتقح علـــيّ دائما كانت تمنعني .. لن أذهب إليه .. ليجئ هو إليّ ... ربما يريـــد نقاشا .. أو حمالا .. أو خالع بلاط ، أو حفارا . أو هادر طوب ...

واقترب مني .. وابتسم .. وتوقف أمامي بجسمه الـــذي لــم يحجــب الشمس عن وجهي .. يتابع العمود الذي ما زال يتحرك بيدي بتعمـــد غير المهتم بوقوفه ، نحيف بشكل مزعج ، جســمه يتحــرك كجــذع شجرة خاوية ...

[أية خدمة ... ؟]

قلت . فضحك . وبانت أسنانه البيضاء وسط وجــه حليــق ونــاعم . وبان في عينيه المكحلتين لمعان الآدمي المرتاح ، الخالي من الهموم. وقال لي بصوت يشبه صوت البنت ..

[نعم .. لو سمحت .. أريدك .. ماذا تعمل ؟] ..

اضطررت للوقوف ... كنت أطول منه قامة .. وأعرض .. تفــرس في وجهي .. وابتلع ريقه بقلق . كواحد متوتر . وقلت له :

[ما هو العمل الذي عندك . ؟]

ضحك ، وأخرج علبة سجائره ، ومعها بعض النقود الورقية المطبقـة. أشعل واحدة لنفسه .. مع يقيني أنه لا يدخن ، وأنه أخـرج العلبـة ، والنقود ليغريني ، وليداري توتره ، واهتزازه الواضح .. قال :

[تدخن .. ؟]

قلت له :

[شكرا ...]

ولامس خده الناعم ، وشد نفسا من السيجارة ، وطرده مباشـرة مـن فتحتي أنفه ، وقال :

[عندي شقة .. طلاؤها ضعيف . ويتساقط ... أريدك أن تراهـا ..]

قلت له :

[شقة كبيرة ؟ يعني يلزم لها أكثر من صنايعي ؟]

نظر إلى العمود الذي تدلي بيدي . وكنت أحركه بشـكل عفـوي .. قال:

[لا يجب أن تراها أولا .. هو نفر واحـــد .. ممكـــن تشـــتغل فيـــها براحتك .. يوم ، أسبوع .. كما تحب ...]

ثم لامس بيده العمود وقال بفضول :

[ماذا تفعل بهذا العمود ؟]

لم أرد مصارحته بطبيعة عملي كنجار مسلح ، فربمـــا يرفضنـــي .. فابتعدت قليلا من موضع رأس الشـــاكوش المركـــون تحـــت حافـــة الرصيف جانب المنشار ؛ فجاء هو إلي جانبي ، وكاد يلتصق بـــي ، قلت له ، وأنا أدرك كذبي .. مع أني أكره الكذب والكذابيـــن .. لكـــن لضرورة حصولي علي العمل كذبت . واختلقت تـــبريرا للعمـــود .. وكنت رفعته أمامه ..

[هذا العمود له فوائد كثيرة جدا ، ممكن أحمل بـــه قفـــة .. ممكـــن أضرب به مونة .. و ..]

قطع كلامي وهو يضحك ..

[وينفع للضرب أيضا ؟]

قلت له :

[ينفع طبعا .. لكن عند اللزوم ..]

قال وهو يواصل ضحكه ..

[وينفع للدق ؟]

قلت له ، وكنت أضحك معه :

[طبعا .. ممكن الواحد يدق به ...]

قال :

[يبدو أننا سنصبح أصحابا ..] ..

فوجئت بقوله . ضحكت . وقلت :

[أصحاب ! ، وما له ، طيب ، واليومية ، لم نتفق علي اليومية ،!؟]

وتأبط ذراعي ، وسحبني برفق أخوي نحو القهوة العالية ، أم سلالم .

صدقني .. كنت في أشد الحاجة لكوب شاي ، أو قهوة ، أو أي شـــئ يعدل دماغي المقلوقة بالشمس .. قال :

[.. تأكل معي ؟]

أثار جوعي . فقلت :

[أنا فاطر من بدري .]

وكان يتجه ناحية دكان " المدهش " وبطريقة آمرة ، قال :

[سنأكل معا . ها ؟]

وسألني :

[أتريد فولا ، أم كشري ؟]

الحقيقة حرك لعابي وقلت :

[أي شئ يعجبك .] ..

وأخرج نقوده الورقية الكثيرة ، ودخل إلي ساحة المطعم الفاخر ، وكنت أنتظره علي الرصيف ...

وجاء بكيس مملوء بعلب كشري وسندوتشات الفول والفلافل و " طرشي" .. طعام يمكن أن يكفي عائلتي ، ويسد جوعها الذي كنت أشعر به ..

قعدنا علي المقهى ، وأمامنا الميدان المزدحم ، كنت أتمتم بشكر الله في سري ، علي إرساله لي هذا الرجل السخي ، الطيب .. هو رزقي اليوم ، ولن أدعه . لن أفرط فيه .. أكلنا .. وشربنا (الساقع) ؛ ثم شربنا الشاي والقهوة ، وشعرت باتزان نفسي عجيب ، وكان دائم النظر لوجهي ، وكان يضحك ، وهو يتطلع إلى العمود الذي كان موضوعا بجانبي علي المائدة ، وكنت نسيت رأس الشاكوش ، والمنشار ، هناك ، تحت حرف الرصيف .. أكيد ، وجدهما أحد الرجال وأخذهما ..

لم أهتم .. الفطور ، والمشروبات ، وما سوف يأتي ، يمكن أن يعوضني عنهما .. ونهض .. قال :

[هيا بنا لنري الشقة]

[هيا بنا ...]

قلت ، وتعمدت نسيان العمود فوق المائدة ، فليست لي بـــه حاجــة . وخطوت إلي جانبه .. إلا أنه توقف ، وقال ضاحكا :

[ألحق .. عمودك .. ألا تريده .. أهناك أحد يتخلى عن عموده ..]

تخيل .. ؟ تورية غريبة أدهشتني . تورية ربطها هو بيـــن العمـــود ، وما يفكر به .. ظننت أنه إنسان ملطوط . قلت .. أجاريه ، ضاحكـا .

[من يتخلي عن عموده ليس برجل ..]

مشينا قليلا في الشارع ، وبجانب مبني هيئة البريد . كـــانت ســـيارته الصغيرة مركونة .. فتحها ، وتذكرت وقتها سيارتي الأجـــرة التـــى كانت معي ... نعم .. كان لي سيارة .. أعمل عليـــها قبـــل ســـفري للعمل بالعراق ، كان الركاب يركبون إلي جانبي ، ولم أكـــن أنـــزل منها أبدا ... نعم .. عملت في العراق ... كنت هناك قبل الغزو .

نعم بعت السيارة قبل السفر ، وعدت بعد الغزو "علي الحميد المجيـــد" بلا نقود.دخلت ، وقعدت بجواره ، وساق ، وكان العمود موضوعـــا فوق ساقي ، وكان هو ينظر إليّ دائما ، ويبتسم .... !!

دخلنا شارع محرم بك ، وبعد عشر دقائق كنا في شارع بيته .. كـــان الغروب يزحف علي النهار ..

كنت مطمئنا لمصاحبة شاب سخي ؛ فقد ضمنت أخذ اليومية ، وربمــا أكثر من يومية ، وصعدنا إلي الدور الثاني .

فتح باب الشقة .. كانت واسعة ، وفرشها جيد ، وقفت أنتظر دعوتـــه لي بالدخول ... أسرع وقتها نحو نافذة كـــانت مواربـــة الضلـــف ، وأغلقها .. وجاء .. سحبني كصديق قديم له :

[أدخل .. يا رجل .. أدخل ..] ...

أغلق الباب ... نعم .. عرفت أنه يعيش وحده ، وأنه مرتاح ماديا.

قعدت بالصالة ، أنظر إلي الحوائط التى قال أن طلاءها يتساقط .. لـم يكن بها أي طلاء متساقط .. فقط كانت بحاجة إلي نظافة من غبـــار معلق كثير .

ألقي مفاتيحه . كان دائم الحركـــة ، ومتســـارع .. يذهـــب ، ويعـــود بصمت ، يدخل لغرفة نوم مقابلة لي ، ويعود ، ويدخل إلـــي غرفـــة الصالون ، ويعود .. ثم دخل الحمام ، وجاء .. ابتسم لي بتحية عـابرة ، ودخل المطبخ .

سمعت حركة ثلاجة تفتح مع حركة زجاجات وهو يقول ، دائما :

[نورت .. آنست ..]

كنت أرد بقولي المضطرب :

[أراك مشغولا جدا .. أين هو العمل .. ؟]

كان يبتسم فقط .. كمن يهيئ المكان لقعدة أنس وسمر .. ليس الاتفـاق علي عمل ، وعاد .. دخل غرفة النوم ، ولمحته وهو يخلع البنطلـون والبلوفر . تعمد خلعهما بمواجهتي لكي أراه ـ اضطربـت أكـثر ـ ولبس بيجامة .. نعم .. رأيته يخرج من كيس ورقي كان معـه مـن قبل بعض النقود ، في رزمة ، ويضعها بجانب . تعمد فعل ذلك كمـن يغريني ، وتواري عني وراء الباب ، بجانب السـرير ، ثـم جـاء ، وفتح مسجل انطلقت منه بعض الأغاني الراقصة .. وقال لي :

[خذ راحتك .. لا تقلق .. سوف نتفق ..]

وقعد بجانبي ، متوترا ، وأخذ وقتها رقم تليفوني المحمول ، وسـجله عنده .. وقال لي وهو يقدم مشروبا في علبة :

[اشرب .. هذا عصير أناناس ..]

ثم يسألني بود :

[افتح لك التليفزيون ؟]

رغم اندهاشي من وسائل الود المكشوف . كأني طفل .. قلت :

[افتح ..]

فضحك وقال :

[أفتح . ؟] قلت :

[نعم .. افتح] فقال بود زائد :

[يومك عسل] فقلت مجاريا قوله :

[يومك حليب] فاسترخي بجواري وقال :

[تعرف .. لي أصدقاء كثيرون .. لكن ليسوا مثلك ..]

[عمال مثلي ؟]

[أبدا .. بل ناس أكابر . أكابر ..]

كان صوته يتهدج ... بصراحة .. شعرت بخوف ، وهو يجـاورني ، ويتعمد ملامستي بعفوية مقصودة ...

تيقنت أن الموضوع ليس طلاء الشقة ، وقد تزايد تهدج صوته ، وبـدأ يلهث مثل كلب ، فابتعدت عنه بحذر .. يريد مني ما لا أعرفه .

أ يبغي خلفي ، أم أمامي ؟ !

صعد الدم ليأفوخي ، وحط عليّ الصمت ، والغيـظ .. فـي جميـع الحالات يريد إهانتي ... يـود امتصـاصي .. نخـاعي .. البركـة الربانية التي في جسمي .. نعم البركة التى جعلها فينا للتناسل ...

ابتسمت علي رُغمي . وأنا مشدوه ...

نهض فرحا .. اهتز .. وتدلل داخل بيجامته مثـل امـرأة شـبقة ...
ذهب ، وجاءني بلحم مشوي ، وقطع دجاج ، وضع أمامي أكثر مـن
طبق ، وذهب ، وعاد بطبق تفاح ، وزجاجة بيرة ... تخيل ..! نعـم
شعرت بالقرف والمقت الشديد .. كان يود جرّ قدمي . وإسقاطي فـي
المحرمات .

بقيت قاعدا .. أضم نفسي علي نفسي .. أعالج القرف الـذي أهـاج
أعصابي ... أدركت ما يريده مني ، وأنا أعرف ما أريده منه ...
فقط أريد النقود .. نقوده كانت تغريني ..

قلت له ، وبغيظي المكتوم :

[سأفعل لك ، والشقة ، المطلوب ..]

كان يضع في جهاز الفيديو شريطا ويقول :

[سوف أفرجك علي فيلم عجيب ..]

كان فيلما جنسيا خليعا وقذرا .. أشعرني بالغثيان والرغبة في التقيوء.

أيوجد بشر بهذه الوقاحة والقذارة ... ؟؟!

وكنت أحاول إبعاد نظري عن الفيلم ، وبي رغبة فـي الـهرب مـن
الموقف كله .. من الغثيان الذي أرعشني . فقلت له :

[لن أقدر اليوم علي العمل .. غدا سأجيء إليك ومعي العدة ..] ...

تعلق بكتفي وأنا أحاول القيام ، وقال متوسلا :

[غدا ؟! ولماذا ؟ العمل اليوم أفضـــل .. الليلـــة أحســـن ، والعـــدة موجودة ....]

جلست بقلقي وأبعدته برفق عن كتفي . وقال :

[سوف نكون هنا معا .. نسهر معا ، سوف أسعدك جدا .. لا تذهب]

اتضح لي ما كان يفكر فيه ... نهضت ثانية .. لقد وقعت في شـــركه ... كنت صيدا سهلا .. لكنه لم يعرف بعد من اصطاد ... قلت له :

[لا .. أعذرني .. يجب أن أذهب .. غدا أجئ إليك مبكرا .]

أبان غضبا كريها علي وجهه ، والتوي جانب فمه مثل امـــرأة غـــير مرغوبة .. امرأة استعر جسدها بالشبق واستعد .. قلت :

[صدقني .. بيتي الآن ينتظرني .] قال بسرعة :

[هنا أيضا بيتك ..]

ربت علي كتفه ، كأني لا أعرف شيئا مما يـــدور برأســـه ؛ فأمســـك بيدي ، وقبلها . سحبت يدي وأنا أقول :

[هات العربون أولا ..]

أقول لك الحق .. أردت شد النقود منه .. ابتزازه ، وفي نيتي الـــهرب ؛ لأن سكته غير سكتي .. مزاجه غير مزاجي ...

دفعني برفق في صدري ؛ فجلست ، ثم التوى ببدنه علـــي ركبتـــي ، وكان يلهث ويقول :

[بيتك ستذهب إليه ، وأنت في غاية الحب والسعادة ، ومعـــك نقـــود العربون وأكثر .. لكن لا تتركني الآن .. لا تتركني لوحدي بعـــد أن رأيتك ، وأحببتك .. عشقتك .. سوف أموت لو تركتني]

كأني ، بالفعل ، وقعت في شرك امرأة داعرة .. يمكنـــها الصـــراخ ، وفرجة البشر علي واحد يلعب بمشاعرها ؛ فقد هاج ، وازداد صـــوت لهاثه ... نعم .. كان عليّ إخماد هياجه بأية طريقة ، وكنـــت أهـــز عمود الخشب بيدي بلا وعي ....

كان الوقت يمر من بين أفكاري المتضاربة ، وكيفية الخـــلاص منـــه ... نعم .. الخلاص منه بأية وسيلة .. الخـــلاص مـــن قـــهر كـــان يلازمني .

لفظت .. [ماشي ....] فقط ... فقط .. قلت ماشي ...

وعلي أثرها ، هب واقفا ، وذهب وجاء بصينية أخري . كان يغمـــز لي بعينه ، ويبتسم ، ووضع الصينية بغرفة النوم المقابلة .

مع فكرة خلاصي الملحة .. كيف أفلت منه .. أهرب حتى بدون نقـود .. لا بد أن أفتح الباب ، وأهرب ، وأجري علي السلم ..

لكن اضطررت للانتظار .. مماشيا إياه .. آكلا .. شاربا . مدخنا ...
كأني أفعل ذلك إرضاء لرغبته ؛ لكن الحقيقة .. كنت أنتظر دخول الليل في العمق ؛ فقد اتجهت أفكاري اتجاها آخر .. نعم .. لن أقول الشيطان هو الذي وجه أفكاري اتجاها آخر ... نعم .. لن أقول الشيطان هو الذي وجه أفكاري ... كان هو الشيطان بعينه ...
.. أعرف خطورة ما أنا مقدم عليه لخلاصي ، وآخذ ما أقدر عليه منه ... شيطان وتجسد أمامي ، وتملكتني الفكرة الخطيرة ...
فكرة استولت عليّ .. جعلتني أهيمن عليه ، وأضاحكه ، وهو يلهث .
لكن بعد قليل ... بعد أن ينام الناس ؛ فأنا .. كما أوهمته .. ممكن أن أصرخ بنشوتي ، وأهيج الليل والدنيا بهياجي ، و .. فرح بقولي ، وسحبني لغرفة النوم ..
قعدت علي طرف السرير ، وعمود الخشب ما زال بيدي .. أهزه .. يمينا .. وشمالا ليحد من اضطراب بلغ غايته ..
نعم .. قررت فعل الشيء الخطير .. لخلاصي ...
كان قد ذهب إلي الحمام ، وغاب لفترة قصيرة . استحم وأغرق نفسه بالعطور ، وكنت رسمت برأسي كل ما انتويت عليه .. نعم .. كل ما يمكنني حمله .. علي (الكوميدنو) بجواري نقود كثيرة .. أخذتها .

... أبدا .. لم أفتح الدرج ... كان علي الكوميدنو صينيــــة مملــوءة بقطع الدجاج المشوي والتفاح ، وبيده ... نعم .. أكلت مرة أخـري .. وكان عمودي علي طرف السرير بجانبي ...

... وجاء عاريا ... عاريا كما ولدته أمه ... جسمه الأملس مسـتعدا لي . يرتجف في لهاث .. يطلب الراحة ، والإخماد ...

[هيا .. اخلع هدومك ....]

قال لي ، وهو يقرب مني مثل دودة مقرفة ، وأشـــار بذراعــه نحــو شماعة بجوار السرير وشيش باب البلكونة المقفل .. كان علق عليـــها هدوم خروجه التى جاء بها ، وتعلق برقبتــــي ... التصـــق بــــي .. بظهره .. برغبة نارية .. نعم .. كان يتلوى ، ونام علي صــــدري .. ويعبث بي ... واستلق علي باطنه ... و ... وكنت أقترب ... وهـو يتلوى .. [أخلع ...] .. اقترب بكل ما أحمل من قرف ... وبيـــدي العمود ..

أنهال به .. أنهال به علي مؤخرته .. أنهال علي مؤخــــرة رأســـه .. بقوة الفزع المشترك التى جعلته يحـــاول الاعتــدال ، والنـــهوض .. حاول الركض .. كان ذراعي ، حـــامل العمــود يواصـــل الضـــرب بتلاحق غريب .. وهو يفلت .. ويركض .. ألاحقه .. بكل قوتي ...

أهشم دماغه .. حاول الصراخ .. كتمت صراخـــه بوضـــع مـــلاءة السرير في فمه ..

.. وغرست العمود ، بقوة ، داخل مؤخرتـــه .. نعـــم .. تعمـــدت أن يصل العمود لبطنه .. لمصارينه .. أو يطلع لرأسه .. نعم .. فعلـــت ليسكت .. ليموت .. لكن .. كان يتحرك ، والعمود داخله ..

حيا .. ما زال يتحرك .. بأنحاء الغرفة .. يتحرك ..

كنت وقتها .. أريد إخماده .. وكنت أركل ساقيه بقوة .. وذراعيـــه .. بقوة . لتعجيزه .. لطلوع روحه .. نعم .. حملت الفيديو ، والمســـجل ، والتليفزيون ، وهبطت في صمت بعد أن أغلقت عليه الباب ....

•••

قال الضابط عبد الجواد ..

- كيف حملت المسروقات وحدك .. ؟

قال إبراهيم ..

- وضعت كل شئ في السيارة ..

- سيارته . ؟

- نعم .. سيارته .. أخذتها وبعت أجزاءها مع الأشياء الأخرى .

قال عبد الجواد ..

- ولم تعرف أن بدرج (الكوميدنو) الذي بجانب السرير مبلغ عشــرة آلاف جنيه أخري .. ؟

بوغت إبراهيم .. شعر بغيظ من نفسه .. وحط عليه الصمت ......

نهض النائب .. تمطي وهو يقول ..

- يحبس المتهم علي ذمة التحقيق ..

رافق الضابط عبد الجواد ، المتهم إلي غرفة الحبس ...

رافقه ، وكان يشعر بسعادة تغمره ..

الإسكندرية في يناير ٢٠٠٥م

الإصدارات

النبش في الذاكرة	قصص	علي نفقة الكاتب
التائهون	قصص	علي نفقة الكاتب
الهجرة إلي الأرض	قصص	علي نفقة الكاتب
شوارع تنلم من العاشرة	قصص	هيئة الكتاب
الليل والأصوات	قصص	المجلس الأعلى للثقافة
ظل باب	قصص	اتحاد كتاب مصر
عبق الشوارع	قصص	هيئة قصور الثقافة + مكتبة الأسرة
تراتيل نسج الطواقي	قصص	مديرية ثقافة إسكندرية
مدن وضواحي	قصص	هيئة الكتاب
قضبان الروح	قصص	هيئة الكتاب
الغجر	رواية	أصوات أدبية - هيئة قصور الثقافة
حراس الليل	رواية	علي نفقة الكاتب، طبعة محدودة
أشلاء بؤرة العشاق	رواية	نادي القصة
سوق الرجال	رواية	علي نفقة الكاتب، طبعة محدودة

تحت الطبع

الخبز	قصص	هيئة الكتاب
حبس مدينة	رواية	